العنكبوت الأبيض

رواية

بقلم ورسوم

د. أحمد طاهر الرصاصي



دار اكتب للنشر والتوزيع



العنكبوت الأبيض

العنكبوت الأبيض

بقلم ورسوم د/ أحمد طاهر الرصاصى
الطبعة الأولى ، القاهرة 2019 م
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد رجب عواد
رقم الإيداع : 2512 /2019
I.S.B.N: 978-977-488-631-7



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

شوارعنا

بشرية مُشوشة، منها الناقص والمُكتمل، العاقل والمُضطرب، الغنى والفقير، بعضهم من جعل فكره على المسار الصحيح، وآخرون تائهون في شوارع مزدحمة يُسيطر عليها الزحام والفوضى التي نظموها واعتادوها.

فوضى وحركة تزداد وتقل أيامًا وأيامًا. فهناك هذه العطلات الرسمية، والليالي الصيفية، والأعياد والمناسبات.. إلى غير ذلك من أحداث تدفع بعضنا إلى مسارات الحياة بأقدارها وسبلها التي تساعدنا على النسيان.

ترى هذا الإيقاع الغريب غير المنضبط.. فهنا شارع به بيتًا غاية في الاتساع، والبهرجة في البناء، وبجواره بيت غاية في التدهور والانقسام، يتألم دائمًا من عمق الزمان. كلها بيوت متناقضة، ليست في الشكل فقط بل في جوهرها ومحتواها، تجمع بين كل غريب وعجيب وخفي عن أعين المارة وعقولهم. قد تصعق من سماع قصة بيت ما، فهناك الأسرار التي تسير بين جدران البيوت، وخلف الأبواب والنوافذ.

هل تتخيل كم بيتًا حولك؟ وكم سِرًا مدفونًا فيه؟ قد تكون أشياء عادية، وقد لا تكون كذلك. أنسمع عن بيت ملعون؟ أو بيت مسكون؟ إنها الأسرار داخل البيوت ونحن ننظر دون أن نعلم ماذا يجرى هنا أو هناك نسير في الاتجاهات ونرى أشخاصًا منهم من يبتسم، ومنهم غاضب، وآخر مشتاق. وجوه بعضها صادقة، وأخرى قد تخدعك، يكون وراءها ثقب أسود مكتوم، أو عالَم مجنون من الغرائب والمعجزات.

طرقات وأروقة يجب تأملها بعناية. إنها لا تُحصى بتفرعاتها المشدودة والمنحنية والمتآكلة، المسدودة التي يسير بعضنا فيها دون معنى أو هدف. فتسير في هذا الطريق الذي يفاجئك بكونه مغلقًا. أهذا عيبٌ فينا؟ أم في المكان؟ أم في هذا الزمان؟ أم في مصيبة وسِرٌ ما جعلته هكذا؟ إن العيوب ليست في هذا الزمان، ولا في ذاك المكان إنها متأصلةٌ فينا، فيمن بنى هذا السد الذي قد يكون منفذًا وامتدادًا، يسهل علينا الكثير لمن أدرك أهمية الطرقات، التي قد تنقذ الإنسان وتختزل الزمان.. فدقات عقارب الساعة التي تمر دون تردد ولا تنظر إلى الوراء، قد تسحبك وتشدك إلى الأعماق، وتأخذك في طرفة عين.

كلنا نسير في الطرقات في مسارات الحياة المتناقضة.. فمدينة مزدحمة وأخرى قرية في أعماق الريف، قرى من الطين والطوب الأحمر الهش الذي غزا أركان الأرض، فأصبحت مُرقعة مُتلطخة بهذا الجهل.

إذا نظرت من الأعلى.. ستجد بين هذا التناقض الشديد والتفرعات المتقاطعة التي لا تنتهي العابرون في الطرقات، يسيرون في الاتجاهات،

يصنعون مساراتهم ومكاسب قوتهم، فيعتادون عليها ويخافون استبدالها بمسارات غيرها. لماذا هذا الكسل والتوكل على ما هو في اليد؟ هذا الخمولُ الذي يجعل المرء يكتفي فيُسيطر على العقل، ويدفعه إلى الظن أن هذه الطرقات الأخرى قد تصيبه بهذا النقصان، أو هذا الفقدان. فقدان ماذا؟! للأسف لا يعلم، فهو لم يجرب الطريق من قبل.

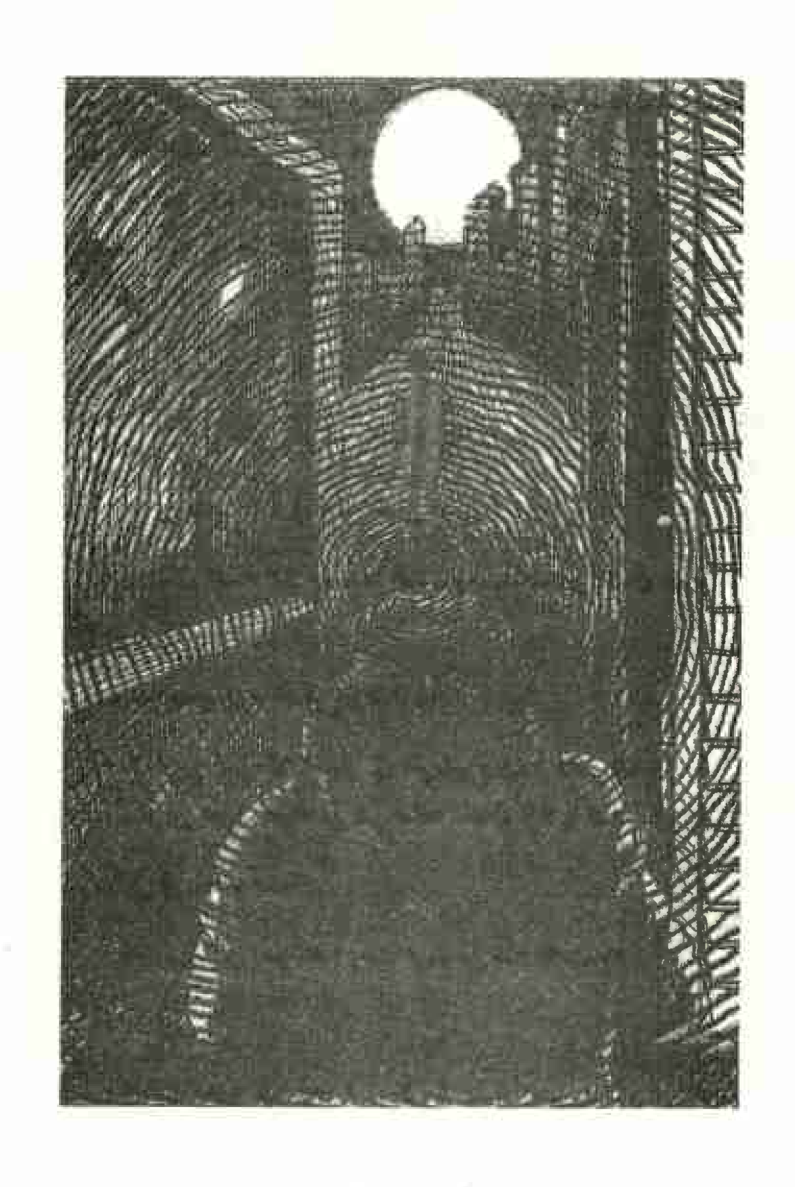
تنظر إلى الأعلى، تجد هذه الشرفات التي تكاد تعانق بعضها البعض دون خجل أو ملل. تصنع عند رؤيتها هذا الإضطراب، حول خصوصية الإنسان العاقل المُدرك لاحترام الحياة، وعلى النقيض بيوتًا تفرقها هذه المسافات البعيدة التي تزيد من الشعور بالوحدة والنقصان. فقط القليل منا من صنع لنفسه هذا الأمان، وهذه المسافات والأبعاد المُقدرة والمحسوبة بعناية، لاحترام قيمة الإنسان.

***

مسقط رأسي

هناك في البعيد تسمع أصوات العجلات، عجلات المركبات التي تجرها الخيول، والتي تزحف فتصدر هذا الصوت ذو الإيقاع المتناغم الأصيل الذي يدفعك ويُذهب عقلك إلى زمن قديم لم تعشه. هذه النغمات المختلطة بإيقاعات المآذن وأجراس الكنائس، تدفع العقل ليفكر بأن هناك دفء طيب يتوغل بين أركان المشهد. فتمتزج مشاعر الدفء بصوت نافذة خشبية قد فتحتها سيدة عجوز، مشتاقة لنور الشمس، تريد التأمل لنغمات الحياة، تقف خلف نافذتها تتابع هذه الحركات والأقدام المتتابعة التي تصدر هذا الصوت الذي يختفي تدريجيًا في أعماق المغيب،فتشعر العجوز بالسكينة والحاجة إلى الراحة لبدأ يوم جديد. تستعد لغلق النافذة حتى يُلفت عينيها شيئًا ما..

***



زُهير

واحدٌ هناك بعيد يمشى بخطوات سريعة، يمد ويشد في خطوته، والشارع أصبح ظلامًا يذوب مبينًا اتجاه سكته، من مشيه تشعر أنه تائه متعبٌ من يوم طويل لكن هائم في طريق خطوته، والشبابيك المقفلة وعواميد النور تُبين إنه ليل غريق، يتلفت يمينه وشماله طول الطريق.

هذا الفتى الذي تتابعه العجوز هو زهير العائد من مصنع الأخشاب. عاملا بسيطًا. عَلامه وعِلمه لم يساعده في حياته ليترك ذلك ذاهبًا إلى عِمالة بسيطة. يسكن في هذا الشارع الطويل بين جيرانه في سلام وأمان. يسترزق بتلك الأبواب التي يصنعها في دكانهِ الصغير بهذه الدقة والحب المفرط، فتجدها مكسية وممتلئة بهذه النقوش الزخرفية البارزة. التي تعبر عن نفسه الذكية الغنية بالجمال، وبتلك الفوضى المنظمة في نفسه.

***

أصدقاء مصنع الأخشاب

له صديقان محمود وعدنان، يعملان بنفس المصنع الذي يعمل به زهير. يعيش الصديقان بجوار بعضهما البعض، والأصدقاء الثلاثة يبدؤون كل يوم في صباحهم بالعمل في مصنع الخشب. يتقابلون أمام بيت زهير ليذهبوا معًا إلى طريق المصنع.

كان الصباح هذا اليوم باردًا والسماء مُلبدة بالغيوم والشمس التي قد أشرقت لم يحن ظهورها بفعل تكدس السحب التي يُنتظر سقوطها، ويخرج زهير من بيته مودعًا زوجته، إلى شارعه الطويل إلى هذا اليوم الجديد. يُخبر صديقاه قائلًا:

- حمد الله على السلامة يا شباب الدنيا شكلها هتبقى صاقعة قوي النهاردة، وهيبقى يوم برد جامد ومظنش إننا هنتعب في الشغل النهارده.

عدنان يرد على زهير في سخرية:

- إنت باين عليك فايق يا زهير،وناسي الشغل والبهدلة اللي هنشوفها النهارده، يالله بينا نتحرك وبطّل لماضة لأن طلبية النهارة كبيرة وانتوا عارفين إن النهارد السبت، وبداية الأسبوع والشغل كتير.

الثلاثة يسيرون بجوار بعضهم البعض، والشوارع تكاد تكون فارغة في صباح هذا اليوم، يحاولون التخفيف عن هذا الصقيع بالتحدث عما فعلوا في يوم عطلتهم أمس.

يقول عدنان:

- فاكرين إمبارح حصل إيه؟ إنت يا محمود كان شكلك يموّت من الضحك أما روحت تكلم البنت إمبارح..كنا هنموت من الضحك عليك وإنت خايب ومش عارف تنطق تقولّها حاجة، وعمّال تلغبط في كلام مش مفهوم، والبنت فكّرتك مجنون أو عبيط وخافت منك، والله كنت خايف لتصوّت، وتلم عليك الناس.

يضحك محمود ويقول:

- مش عارف أنا ديمًا كده دي أكنها شافت عفريت.. خلاص يا عم مش هعْملها تاني. بس خد هنا إنت عاملي فيها فاهم،كنت أعمل إيه يعني؟

زهير يُخبر محمود يقول:

- أيوه طبعًا شافت عفريت، يا إبني حرام عليك نفسك أما تحب تتعرّف على بنت متبقاش راجع من شغلك، ومتبهدل أكيد لازم تلبس حلو.. مش قولتلك حتى يومها غيّر لبس الشغل، وإنت مروّح، وعاندتني وروحت بلبس الشغل. إنت اللي تستاهل، والله إحنا نفسنا إنك تتجوّز، وتريّحنا من حركاتك دي.

يستمر الحديث، والضحك في أثناء المسير عن محمود وطرائفه الكثيرة حول زواجه، وسعيدة الحظ التي ستتزوجه حتى يصلوا إلى بوابة المصنع مبتسمين في سعادة الصحبة الطيبة غير مكترثين بِهَم يوم عمل طويل ومُرهق.

***

زهير وأصدقاؤه

زهير الصانع الماهر المُتقن لحرفته، يأخذ إلى دكانه البسيط هذه الفضلات المتبقية والمهملة من مصنع الأخشاب ليصنع بها بعض القطع النحتية الرائعة التي تُعَبر عن هِبة التشكيل، وموهبة التخيل في هذه المنحوتات البسيطة. فعالِم في عمله يتنعم بما يصنع. فبيته مُزين دائمًا بتلك الأخشاب المنقوشة والتي تُزيّن وتتسلق جدران وأثاث بيته.

زوجته هي "هاجر" التي تكبره سنًّا، امرأة مليحة المنظر، قويمة النفس، تميل بشرتها إلى السمار الذي يترك في نفسه محبة وروعة الإعجاب. مُتيمٌ بها ويرى فيها نفسه وترى فيه نفسها.. تزوّجا بعد سنين طويلة من الحب والمودة والكفاح حتى أنشآ بيتهما الجميل.

لقد تحملت مع زهير الكثير، فقد كان يعاني قبل حبيبته اضطرابات اجتماعية لا تعلم عنها شيئًا، فلم يخبرها ولم ترد أن تذكّره بسؤالها، فهي تخاف بشدة عليه، وتعلم أنه ليس له في هذه الدنيا سِواها. فاكتفت لنفسها بما تعرفه عنه.

عدنان فتى يتيم الأب، يتيم الأم، له أسرته التي يعولها. امرأته تحمل حملها في شهرها الثامن. منتظرين هذا المولود الثاني الذي سيحمل اسمه، ويُكمل وجوده في حياة هذا الزمان.

محمود الفتى الصانع غير معلوم الهوية الذي علم وتعلم الحياة بين ثنايا وجدران البيوت والطرقات، فوجد في عمله بيته وأسرته التي غابت عنه منذ بدايات طفولته الضائعة.

ثلاثة أصدقاء منذ نعومة أظفارهم، يجمعهم العمل في مصنع الأخشاب، يشتد عودهم على مر السنوات، يعملون على قطع الأخشاب وصقلها. هذه القطع الخشبية الكبيرة التي يتم تجهيزها وتوزيعها على منافذ كثيرة تعمل على توفير الأخشاب المجهزة للاستخدام.

مصنع الأخشاب في هذه المدينة الساحلية يقع قرب شاطئ البحر يضم وينتج العديد من أنواع الأخشاب، فأخشاب البناء وأخشاب الأثاث، أخشاب الأدوات الرياضية، أخشاب الآلات الموسيقية والأخشاب التي تستخدم في صناعة الورق.

الثلاثة في قسم أخشاب البناء التي تجهز وتقطع للأعمال اليومية يعملون على آلة كبيرة لقطع الأخشاب الصلبة، وصوتها القاطع المزعج أصبح مألوفًا منذ زمن طويل، فقد اعتادوها وغَدَا صوتها كصوت طيب يُعبر عن معنى العمل والكد، والرزق الحسن. فالصوت الشديد أصبح جزءًا من مسارهم وحياتهم اليومية.

***

في مصنع الأخشاب

يقول زهير لعدنان ومحمود:

- إيه رأيكم هنعمل إيه النهارده بعد ما نخلّص شغلنا؟

عدنان:

- خلينا نروح على القهوة، نقعد قدام البحر ويا سلام نستمتع بالهوا وقت الغروب، ونشرب أجمل ثلاث كوبيات شاي بالنعناع. إيه رأيكم؟

يضحك محمود بضحكاته الغريبة المراهقة والمتقطعة الساخرة:

- أيوه صح ونتفرج على اللي رايح واللي جاي وخصوصًا البنات اللي زي القمر وهعمل بنصيحتك يا زهير والبس لبس كويس وأكلم واحدة منهم، ومالكوش دعوة بيا بقى سيبوني على راحتي.

زهير وعدنان ينظرون إليه ضاحكين من فكرته في طريقة الاستمتاع بالجلوس على المقهى ويخبره زهير ضاحكًا وصوته يسيطر عليه الجدية:

– يا حبيبي بس كده من عنينا، ونشوفلك بنوتة تتجوزها تربيك، وتخليك تعقل وإبقى عاكس بنات الناس تاني. تعرف إنت محتاج إيه؟ محتاج واحدة مجنونة زيك هتفهمك وهتلمك.

يستمر الحوار الدائر وهم يعملون مستمتعين بمسار العمل في ظل هذه الصحبة التي تُنسى الصعاب والمشاق.

الوقت يمر مسرعًا غير مدركين بمروره السريع. العرق والكد والجهد على رؤوسهم ظاهر بيِّن على حواف جِباههم اللامعة، وقطرات العرق التي تؤكد صدقهم وثباتهم وعِلمهم بقيمة العمل. يتحركون باستمرار يدندنون بهذه النغمات والكلمات القديمة ليواسوا أنفسهم طوال اليوم.

***

السيد عوني

يَمُر عليهم السيد عوني هذا الرجل الساخط الناقد المُتبجح رئيسهم في قسم أخشاب البناء الذي يستمر في إذلالهم ومضايقتهم، يُوبخهم بهذه الكلمات السيئة التي تُعبّر عن سوء نفسه، واستغلال نفوذه وسلطته لكي يعوض نُقصانًا ما في شخصه. شيء عليل يختبيء بين ثنايا صدره يُخبر زهير وأصدقائه:

– إنتم طول الوقت بتتكلموا، وعاملين إزعاج، وسايبن شغلكم، وشايف نكم مستهترين قاعدين تضحكوا وتتكلموا وده وقت شغل. مش عارف المفروض أعمل معاكم إيه؟، وإنت يا محمود والله هطردك لو مسمعتش أوامري واللي بقولك عليه بالحرف، وإنت يا زهير وعدنان معاه، مش عاوز أسمع صوتكم طول ما أنا موجود، وإلا هيكون رد فعلي شديد وهعاقبكم وأطردكم من الشغل نهائيًّا، وإنتم أحرار.

زهير:

– سيد عوني مع احترامي ليك إحنا مش مقصّرين في شغلنا أبدًا، ومفيش حاجة بنحبها أكتر من شغلنا، إحنا بس مبسوطين وده مش عيب،

يشهد علينا الشغل اللي قدامك، كل طلبية الخشب متجهزه قبل أوانها، ومفيهاش أي غلطة وراجع بعدنا ولو دلوقتي. حقيقي مش شايف إن في أبدًا عيب في الكلام البسيط وقت الشغل مادام مفيش أي تقصير أو إهمال. اعذرني مش شايف أي داعي لعصبيتك، وإن كنت مضايق من ضحك محمود وصوته العالي فمش هيكرّرها أوعدك.

كانت كلمات زهير جادة ثابتة. معبرة عن طيب نفسه وصدقه وصفاء سريرته التي استوعبت حِقد رئيسه الحانق الخانق. ليتوقف السيد عوني عن الكلام بعد حديث زهير وأنفاسه الخارجة بغلظة تتوقف عن الغضب، يذهب وينظر إليهم يتركهم إلى عملهم، ونظراته تسيطر عليها الضيق والتوعد. يذهب بعيدًا ليجد أناسًا آخرين يصب عليهم حقده وآلامه المريضة.

فالسيد عوني هو العامل القديم في هِذا المصنع. إنسان قد عانى الكثير من تقلبات الحياة وقسوة الزمان، وهؤلاء الأهل الذين تركوا في نفسه هذا المرض الذي لم يستطع مداواته أو اجتنابه.. فامرأته الخائنة الهاربة التي تركت له ثلاثة أطفال صِغار، وكان عليه تربيتهم وحده دون أم.

من جانب آخر لوجه السيد عوني. هذا الجانب الأكثر قتامة والأشد مأساة، إخوته الذين سرقوا ونهبوا قوته وظلموه في بيته، بيت والده الذي تركه لهم، فقد كان أصغرهم سنا. هؤلاء الإخوة قساة القلوب، والمُعمّاة نفوسهم عن الحق والأمانة قد تركوه وأكلوا حقه في بيت والده وميراثه. تركوه يعاني ظلمهم وظلم الزمان، مُكتسبًا هذه النفس العليلة التي فشل في مداواتها، محاولًا التنفيس عنها ولكن في صور سلبية قبيحة.

محمود يستشيط غضبًا من السيد عوني هذا الرجل الذي غير مسار هذا اليوم من يوم جميل طيب إلى يوم سيء يخبر زملائه:

- أعوذ بالله ده راجل مريض مجنون، ولسانه زي الزفت متبرّي منه.. ده كرّهني في الشغل روح منك لله يا شيخ.

يرد زهير في حكمة ويمد يده على كتف محمود ليهدئه محاولًا توسيع إدراكه لشيء هناك يراه:

- محمود خد بالك. البنى آدم ده ممكن جدًا يكون في حاجة في حياته آذته، وخلته بالشكل ده، ومش حاجة عادية أنا متأكد أنه شاف بلاوي كتيرة للأسف خلته بالحال ده. حرام عليك متشتموش. ممكن ربنا يصيبك باللي صابه، وتبقى زيه في يوم من الايام. إفهم كلامي وحاول تدعيله ربنا يهديه. مش بعيد أبدًا بنى أدم عادي جدًّا زينا تحصله مصيبة كبيرة لدرجة إن يتجنن بسببها. ربنا يسترها معانا. خلينا نكمل شغلنا.

يستمر العمل حتى جاء وقت الراحة الذي يطفئ للعامل نار ظمئه، ويُبرد جبينه من حرارة كده وحرقة عينه من نزف عرقه. يجلسون مجتمعين على موائد خشبية يأكلون هذه القطع الصغيرة من الخبز المغموس في هذا الطبق الصغير. طبق الفول البارد الذي يحرك أجوافهم الجائعة المرهقة. يتحدثون عن آمالهم وطموحاتهم البسيطة.

زهير:

- تعرفوا نفسي أبني بيت كبير جدًّا من الخشب على شط البحر ميكونش فيه غيره، بيت قوى أزيّنه بنفسي، وأملى جدرانه بالزخارف،

وأعيش على صيد السمك.. يااه. عارف إن أنا حدفت لبعيد بس مفيش أجمل من كده.

عدنان ينظر إلى الأعلى يحرك فروة رأسه مُبتسمًا يفكر في ما يجب أن يكون " وأنا نفسي أسافر بره البلد دي بلا وجع قلب، فلوس أكتر وحياة أحسن من اللي أنا عايشها دلوقتي، عيالي أربيهم وأعيشهم عيشة كويسة مش عوزهم يتبهدلوا بهدلتي ديه. يا مسهل الحال"

ينتظر كل من زهير وعدنان حديث محمود المتوقع بأنه كلام سطحي، يبتسمان، يعلمان مسبقًا ما سوف يتحدث حوله حتى أنهم يبدآن في الضحك قبل بدايته في الحديث:

- بص بقى يابني إنت وهوه بتضحكوا عليّا طبعًا عارفين أنا هقول إيه.

محمود مبتسمًا يحرك يديه في الهواء ليصنع شكل منحنى يعبر عن فتاة بقوام جسدها منحنى أنثوي، يخبرهم:

- ماشي اضحكوا عليّا كويس.. أنا نفسي في بنت زي القمر جسمها كده يجنن، ولو بيضة وشعرها أصفر يبقى خير وبركة.

يضحك كل من زهير وعدنان على منظور محمود لما يريد أن يحققه في حياته. هذا المنظور البسيط والسطحى الذي يعبر عن صديقهم المراهق الذي حدد تفكيره في الفتاة ذات القوام الجميل. يخبره زهير:

- بطّل يا محمود نظرتك السطحية للبنت اللي هتحبها في حاجات كتير غير شكل البنت مهمة جدا. الجمال مش مقتصر على جسم وشعر

ولون. ممكن تكون ذكية مثقفة جدعة تقدر تساعدك في حياتك، وتكون سند ليك في أزمتك. هتفرح يومين بس ممكن متعش مبسوط سنين جاية قدام.ويابني الجواز مش أهم حاجة شغلك ومستقبلك مهمين برده الجواز، والبنت الجميلة جزء من حياتك. ومهم جدًّا إنها تكون اختيارك الصح وده مش سهل. اكبر شوية وبطل قلة أدب ومعاكسة في بنات الناس.

محمود ينظر إلى زهير غير مقتنع ولكن هناك بعض علامات الحزن الغريبة والمختلطة في عيني محمود، إنها نظرات خفية توضح شيئًا لا يعرفه صديقاه عنه، محاولًا محمود تغير مجرى مسار الحوار:

- بص يا زهير حاول تغير الموضوع ده ومنتكلمش فيه تاني بعد إذنك.

يتأكد زهير بوجود خطب ما في محمود ولم يرد التحدث عنه إلا في وقت مناسب. يقول زهير:

- ماشي يا محمود خلينا في شغلنا.

يُضرب صوت جرس عودة النصف الثاني من يوم العمل، وينادى العاملين لاستكمال يومهم. يهم الثلاثة قائمين ومحمود قطع حديثه يُخبرهما:

- هنكمّل كلامنا على القهوة بعد ما نخلّص شغل، وبوعدكم إن الكلام هيكون المرّه دي جد.

الثلاثة يستكملون عملهم. كلٌّ يقف أمام آلته وعمله يصنع حكايته، يصنع مستقبله بيديه. الكل يعمل بلا توقف طالبين قوت يومهم، قوت من

يعولوهم من أناسٍ غائبين في بيوتهم جالسين، ينتظرون عودة كل واحدٍ منهم إلى بيته، ليزيدهم من خير وطيب عمل يومه.

إنتهى عمل يوم شاق من أيامهم التي لا تعد، وهذا الصوت الرائع صوت رنين جرس الإنتاء من العمل، والكل يُلملم شتات ما تبقى من عرقه لُيكمل يومه. يذهبون إلى هذا المقهى المطل على شاطئ البحر ليستمتعوا بما تبقى من نور شمس يومهم.. جلسوا على الواجهة الأمامية للمقهى ليشاهدوا هذا المشهد الهادئ، مشهد البحر المُستقر الذي يعكس، ويتلون بهذه الألوان المضيئة والانعكاسات الذهبية الناصعة الخارجة من قلب الماء بفعل هذا النور الساطع لشمس المغيب.

القلب يخفق في هدوء وسكينة طالبين الشاي بأعواد النعناع النضرة. يُقدم لهم صبي القهوة الفتى عيد أكواب الشاي الزجاجية الشفافة، يتوسطها هذه الأعواد الرقيقة من نبات النعناع. تطيب برائحتها نفوس الجالسين المستمتعين بجمال مشهد البحر،والعربات التي تذهب وتأتي طوال الوقت. العابرون يسيرون يمينًا هناك، ويسارًا هناك، صانعين هذا الإيقاع الجميل من نغمات مترابطة، تعبر عن قدم وأصالة المشهد.

محمود جالسًا باحثًا يتأمل المارات من الفتيات الجميلات باحثًا بين جموعهن عن شيء ما يريده ويأمل أن يجده. هذه النظرات التي تبحث عن حبيبته التي طال بحثه عنها، وزهير وعدنان ينظران إليه مبتسمين ابتسامة معرفة ما يدور في باطن عقله الصغير المُقتصر حول إيجاد فتاته الموعودة. يتذوقون الشاي رشفة ثم رشفة يتحدثون عن الحياة، ومحمود يُكمل حديثه عن فتاته وصفاتها التي يحب أن تكون فيها.

في ظل هذا الهيام زهير يلتفت لشخصٍ ما يُشبه السيد عوني رئيسهم في العمل جالس هناك على الجهة المُقابلة لهم، يجلس وحيدًا على هذه الصخور الندية الخضراء المتراصة على شاطئ البحر. يُخبرهم:

– إنتم شايفين اللي أنا شايفه هناك قدام. باين عليه أنه سيد عوني أو حد يشبهه قوي.

عدنان:

– بس إيه اللي هيخليه يقعد لوحده كده؟

محمود يضحك:

تلاقيه بيشم هوا زينا.

زهير:

بطّل يا محمود هزار. تعالوا ياللا بينا نروح نشوف ماله حتى نتأكد أنه هوه ولا لأ. وبالمرة نسلّم عليه.

محمود:

– ليه بس كده يا زهير بلاش وجع دماغ خلينا قاعدين على القهوة. إنت نسيت كلامه وشتايمه ولا إيه؟ خلّي اليوم يعدّي على خير، والله مش ناقصه تعب وسماع كلامه اللي يسم البدن.

زهير:

- مش كلمتك قبل كده يا محمود قولتلك إن الراجل ده ممكن يكون حصلتله مشاكل في حياته خلته البني آدم السيء اللي هوه عليه ولا نسيت مش ممكن يكون اتظلم ظلم كبير خلاه بالشكل ده. متحكمش على الناس بالظاهر لأن ممكن الحقيقة تكون عكس كده. قوموا بينا نشوف ماله.

زهير:

- يا عيد الحساب كام؟

يفكر محمود مليًّا في كلام زهير، مقتنعًا برأيه، وينظر إلى السيد عوني نظرة أخرى غير ما إعتاد أن يراه. إنه جالسًا وحيدًا هناك. يسأل نفسه محمود، ولماذا؟ إنه من المؤكد أن هناك شيئًا يحرق صدره ويدفعه ليجلس هكذا.

يتحرك الثلاثة بعبور الطريق إلى هذا الشبيه للسيد عوني، ويقتربون منه حتى يتأكدوا أنه هو نفسه. يجلس على إحدى صخور البحر جالسًا في صمته وحيدًا ينظر إلى هذا الأفق البعيد إلى شمس المغيب، والعين تدمع دون الدموع ووجهه الأحمر المُكتئب يزداد توهجًا مع بقايا نور الشمس الراحلة إلى أعماق البحر الهادئ.

يُلقون السلام في تأدب بصوت خافت في احترام وتأدُّب.

الثلاثة:

- السلام عليكم يا سيد عوني.

السيد عوني متفاجئًا وغير متوقع هذا اللقاء يحاول مداراة وإخفاء ما كان به منذ لحظات:

- وعليكم السلام، نورتوني، اتفضلوا معايا.

كان طلب السيد عوني، والطريقة التي يتحدث بها،ونبرة صوته في غاية الغرابة. إنهم متعجبون من هذه النفس الطيبة التي فاجأهم، هذه النفس التي اعتادوا سوء خُلقها وقبح كلماتها.

يجلسون بجواره في غرابة من أمره. يسأله عدنان:

- إزيك يا سيد عوني عامل إيه؟ إيه اللي مخليك قاعد لوحدك هنا؟

السيد عوني:

الحمد لله كويس. ساعات كتير بنحتاج يا عدنان نقعد نسرح ونفكر في اللي صابنا، ومين آذانا ومين ساعدنا. نفكر في حال الدنيا وحالها معانا. آديني بضيّع وقتي هنا قدام البحر لحد مزهق وأروّح.

الثلاثة يسمعون كلماته المتقطعة التي تظهر مأساة هذا الرجل الذي ظنوا في مرات عديدة أنه غليظ القلب، مدركين مدى انكساره مُبصرين بمصيبته يقول زهير:

- سيد عوني إحنا زي إخواتك الصغيرين غير العيش والملح وعشرة السنين في شغلنا لو حابب تفضفض، وتخفّف عن نفسك معانا هتلاقينا مقدرين، وإعتبرنا من اليوم أصحابك، لو معندكش مانع. مفيش أجمل من الصحبة الطيبة اللي بتخفّف عنا مشاكل الدنيا.

- سيد عوني:

- شكرا يا زهير على اهتمامكم، والله أنا قصّرت كتير في حقكم، وكنت دايمًا بضايقكم في شغلكم سامحوني.

محمود:

- إحنا مسامحينك، والله إعتذارك ده غالي عندنا وإنت من اليوم أخ كبير لينا.

كلمات زهير ومحمود وموقفهما النبيل من السيد عوني قد أراحت قلبه تدفعه الى التحدث دون خجل أو ضعف ليعلم بأن القدر أرسل إليه هذه الصحبة الطيبة فصدقت ألسنتهما ونظراتهما التي أكدت طيب سريرتهما وحسن نياتهما.

السيد عوني فرح يريد الكلام، ولكن عينه في حرقة تتلألأ في حمرة الحزن،والدموع حبيسة تحت خط الجفون تريد الخروج، تريد الترف لكنها متجمدة في عزة صامدة، ولكن الكلمات تبدأ في التعبير عن شخصه يتحدث قائلًا:

- انا أصغر إخواتي. الوالد والوالدة كانوا يحبوني جدًا، لحد ما توفيت أمي، ومع الوقت نساها والدي، ومرّت شهور، وسنين لحد ما إتغيّر كتير، والحب والحنان اللي اتحرمت من صغري يقل لحد ما اتجوز هوه وسابني، وكان بداية اهماله الشديد ليا. يودينى اشتغل صنايعي هنا وهناك. طفولتي

مبقاش ليها ذكريات عندي غير التعب والبهدلة وكسرة النفس. إهمنت في شغلنات كتير بعلمه وبغير علمه. جاب منها ثلاث ولاد حبهم أكتر مني وكان ديما بيفضلهم عني بالرغم إني كنت بحبه قوي. كان المفروض يراعي ابنه اليتيم اللي اتحرم من حب أمه. لكن فات الوقت ومات وساب الميراث كله في إيد ولاده ومراته، وكنت أنا المظلوم اللي حتى ما أخدتش أي شيء من حقي. كان ظلمهم كبير هدلوني لأني مليش حد في الدنيا ديا غير أمي اللي اتوفت وأبويا اللي ظلمني ورماني.

إيد طفل مشققة ماهاش التعب والبهدلة.. بس مع الوقت كبرت، وجسمي نشف من قسوة الشارع والشغل اللي مبيرحمش أطفال صغيرين، لحد ما ربنا إداني القوة والصبر واتعملت صنعة خلّتني أكبر ومع الوقت بدأت شغلي في المصنع بتاعنا ده.

حبّيت أشوف ونس وأبنى بيت جميل مع بنت جميلة اتجوّزها تشوف حالي وتراعيني. بس كانت هي اللي خلّصت على البنى آدم الكويس اللي فيا بخيانتها.

كان الثلاثة يستمعون إلى حديث السيد عوني المستمر في النزف دون توقف هذه الكلمات الأخيرة التي صعقتهم وأعطتهم الفكرة حول مدى أهمية هذه الإنسانة، شريكة الحياة التي تستطيع أن تبني حياة كاملة طيبة، أو أن تدمر كل شيء. لقد علموا بنفسه التائهة المُرهقة بزيف وبهتان هذا الحب الكاذب. هذه الخائنة للأمانة. فأصبح هو الغريب التائه بين جنبات الليالي يترنح حزينًا في دنيا من المحال، فضاع شبابه، وطريق الغد الذي

أصبح وحلًا مُهَدَّم الدروب، تسحقه الذكريات. يعيش هائمًا ببعض بقاياه المعذبة.

الصمت، الثلاثة تتصارع زفراهم التي قد اختلطت مع الغضب والحزن لحال السيد عوني الذي يخبرهم متأسفًا مرة أخرى:

- سامحوني على إساءتي ليكم الكتيرة. الحياة اللي عشتها خلّتني أتكلم بطريقة تكرّه الناس فيا. خلّتني أحقد على ناس كتير. أنا كل يوم أقعد هنا أحاول أنسى أو أداوي نفسي، أحاول أصبّر نفسي، وأتغيّر لواحد يحب الناس لكن دايمًا الدنيا كانت بتغلبني.. سامحوني وأتمنى مكنش أزعجتكم بمشاكلي.

محمود:

- إزّاي ده يا سيد عوني. إحنا اخواتك متقولش كده. كفايه إنك بتحاول تصلّح من نفسك، وكلامك بيأكّد إنك إنسان طيب، وفيك الخير لسه موجود.. ياما ناس كتير الشر فيها موجود وحياهم كويسة مش ناقصهم حاجة.

كانت هذه كلمات التي تحاول مواساة السيد عوني.. ينظرون إلى الأفق البعيد إلى نور الشمس التي اقترب ذهاها في حيرقم بحاله. سعداء بكونه استطاع أن يحكي ويخرج ما كان حبيسًا في صدره.

زهير:

– تعرفوا كل ما بشوف إن الدنيا بدأت تسود في عنيه أبص على المنظر ده اللي إحنا شايفينه قدامنا قد إيه هوه جميل، قد إيه ربنا بيحبنا إنه يخلق حاجات كتير حوالينا جميلة بس لازم نحس بيها، ونشوفها كويس الحاجات دي هي اللي بتصبّرنا على مشاكلنا، وتخلّينا نكمل برغم المُر اللي بنشوفه كل يوم، وتبقى دى الحاجه اللي بتطيّب نفوسنا.

المشهد الذي يقصده، ويتحدث عنه زهير، هو مشهد خط الأفق البعيد من هذا البحر الهادىء، الذي يعانق سمائه الصافية في هذه الظلمة التي تستأذن بالمجيء، عناق شديد بين الليل والنهار هذا الحق الأكيد تراه يُحدّثك، يُخبرك بأن الخالق منحك هذا الجمال، وهذه الفرصة التي قد تصنع منها بداية تغرس بها عمرًا جديدًا، وصحبة طيبة لا نهاية لها. فإذا كنت تستطيع رؤية هذا الجمال، فأنت لم تمت بعد. لم تمت روحك لم تمت إنسانيتك، فلا إنسان عن الدنيا يغيب بهذا الحق الموجود في نور الأفق، روحك تسير وقلبك ينبض والخالق أعلم بك وبحالك. فلا يأس ولا هوان بعد رؤية جمال كهذا.

السيد عوني ينظر معهم إلى هذا المشهد الجميل يبتسم ويخبرهم:

– إنتم على حق والله. فعلًا بالرغم من قسوة الدنيا بس لسه فيها حاجات كتيرة جميله، وانتم أكبر مثال على كده. شكرًا إنكم سمعتوني وخلتوني أفضفض وأرتاح كتير، مش عارف أقولكم إيه، والله مبسوط جدًا إني موجود معاكم دلوقتي.

زهير:

– هتتكرّر كتير.. إحنا خلاص إخوات من النهارده.

الأربعة يجلسون،ويتابعون مشهد مغيب الشمس يطلبون من أحد الباعة على الشاطئ هذا المشروب الشعبي الحار الذي يداعب مذاقه برودة نسيم البحر الذي بدأ يشتد. يتأملون في السماء والظُّلمة قد اندمجت مع أركان المشهد والنجوم بدأت في إظهار مفاتنها. كأنها فتاة جميلة آتية من بعيد حتى تظهر مفاتن وجهها المضيء.



لقد جمع هذا المشهد هؤلاء الأربعة في صِدق،ومودة حتى يهم كل منهم مودعًا الآخر في عناق مترقبين، ومؤكدين على اللقاء غدًا في نفس المكان.

السيدة العجوز في حجرهَا المُطلة على شارع المصنع. تعد بعض الطعام لحفيدهَا التي تصنع هذه الضوضاء حولها حتى تضع طعامها على هذه المنضدة الخشبية القديمة لتبدأ الطفلة الصغيرة في تناول عشائها.

تنظر السيدة كعادهَا من النافذة في ألفة لحفيدهَا الجالسة خلفها، تصنع هذه النغمات المتقطعة من رنين ملعقتها المعدنية التي تتخبط في إناء الطعام، لتبتسم العجوز عالمة أن الطعام قد أحبته الطفلة وقد طاب لها. تبتسم وهي لا تزال تقف تنظر من نافذهَا القديمة، تتأمل المارة، فمنهم من تعرف وجهه دون اسمه، ومنهم قريب، ومنهم غريب. ترى هذا الفتى القادم من بعيد، عائدًا إلى بيته ولكنه سعيد يبتسم طوال الطريق. فتعلم بحدوث شيء طيب له في هذا اليوم.

بالرغم من عدم معرفتها لشخص زهير، فإن العجوز قد ارتبطت بشيء ما في نفسها به. كانت تحب أن تطمئن عليه دائمًا وتتابع ذهابه ورحيله من هذا الشارع. تسعد لكونه يسير سعيدًا وتتأسف وتحزن لو رأته يومًا ما حزينا. إنهما لا يربطهما شيء حقيقي. لكن هناك شيء ما يُحرك نفسها عطفًا نحوه كواحد من أولادها.

زهير يسير عائدًا إلى بيته آخر الطريق، يمر على بيت العجوز لا يعلم شيئًا عنها. يُفكر في هذا اليوم وفي حال السيد عوني، وفي حياة كل وفرد من أصدقائه، حامدًا شاكرًا الخالق لما قد رُزق به وبما أصابه في يوم ما.

يصل إلى البيت يتنهد ويزفر تلك الزفرات التي تعبر عن يوم طويل ومرُهق. يقبل زوجته ويحتضنها اشتياقًا إليها. فهو يحبها بحق:

– إزيّك يا هاجر وحشتيني قوي.

هاجر:

– إنت كمان يا زهير وحشتني.. إنت إتأخرت قوي النهارده عن كل يوم.

يخبرها زهير بما حدث مع السيد عوني على شاطئ البحر، ويحكي عن حكاية هذا المسكين.

تسأله:

– مش ده الراجل اللي بيضايفكم في الشغل إنت وإصحابك.

زهير:

– أيوه صح هو.. تصدقي؟ طلع بني آدم غلبان جدًّا، والدنيا ظلمته وبهدلته ربنا يحسن حاله ويخفف عنه بس قوليلي إنتِ وطمنيني عليكي عاملة إيه؟ بحبك قوي.

هاجر:

– أنا كمان بحبك، ومقدرش أعيش من غيرك.

يأخذ زهير حبيبته يقبلها وتقبله،يأخذها بين كتفيه في محبة كأنه يحتضنها لأول مرة. هذان الزوجان اللذان رزقهما الله بحب طيب يملأ حياتهما،

ولكن دون أطفال لا يكترثان أبدًا بذلك، حامدين الله على حبهما وما رزق كل منهما بحب الآخر.

يتسامران حتى تجهز العشاء، ويستمران في أحاديث الحبيبين حتى يغلب على هاجر النعاس،ليستأذنها زهير بالتأخر ليشرب هذا الكوب من الشاي.

يقف في شرفته القديمة، ونور مصباحها الأصفر يؤكد ويرسم تلك الظلال المتداخلة ظلال هذه الزخارف الخشبية التي صنعها زهير بأنامل يديه، والتي أضفت في نفسه قيمة حياته وهذا الزمن الذي مر عليه مع حبيبته. يفكر ويتذكر كيف بنيا هذا البيت بعد عناء طويل. يتذكر بعض ذكرياته الجميلة معها، وقلبه يداعبها ويحبها يريد أن يسعدها.

ينظر يمينًا ويسارًا ليجد بعض الجالسين، وبعض المتكئين على شرفاتهم سارحين في أعماق ذكرياتهم حاله كحالهم منهم من يقف أو يجلس في الظلام غير ظاهر منهم غير ظل خفي، ومنهم من ينير مصباحه كزهير.

ينظر إلى العلا، يتأمل هذا القمر المستدير الذي تناءى عن كل الدنيا. لقد طغى بنوره على هذه النجوم المتلألئة التي لا حصر لها ولا عدد. سحب رمادية وبيضاء، سماء في زرقةٍ قاتمة تختبئ خلفها. الشوارع في ضوئها الخافت كمشهد في فيلم سينمائي قديم.

يمر الوقت ويزداد السكون، ويغرق الواقفون في شرفاتهم في ظلام الليل، يبدأون في الرحيل حتى يدرك زهير أنه وحده المتبقي. يرى هذا النور الشحيح الذي يهيم بين الجنبات بعيدًا عن الجدران الحشرات

وكائنات الليل تتصاعد أصواتها، تنادي بأن وقتها قد حان. وأن الليل في أوج اشتعاله.

زهير يقف متكئًا على سور الشرفة الذي أصبح باردًا. تداعب يداه هذه الزخارف المنقوشة التي صنعها بنفسه، ليتذكر هذه اللحظات الجميلة وقت صنعها وتشكيلها. فتنتابه قشعريرة غريبة تخيفه دون سبب، تمتد من كتفه إلى أطراف يديه ثم تسيطر على باقي جسده. يفكر بهذا الفضاء العظيم الذي يحوم في الخارج الذي يصنع أجمل الألحان.



فهناك النجوم السابحة، وشمسنا الغائبة،ومجرّات وأكوان لها كل هذه الألوان التي لا حصر ولا علم لنا بها. عيناه تترقرقان وأعصابه بدأت في التراخي، يشعر بالنعاس ليذهب إلى فراشه ينام بجانب حبيبته.

الحلم

يحلم زهير أنه جالس على كرسيه وحوله زملاؤه وأصدقاؤه في المصنع جالسون معه. الجميع يتحدثون يثرثرون حول تلك المنضدة الخشبية كل مُنهمك في حكايته، وهو جالس صامت لا يتحدث لأحد لا يلتفت. كان الملل شديد حتى ينظر إلى سقف هذه الحجرة الكبيرة التي يجدها شفافة، فيرى السماء في ظلام الليل الشديد، والقمر في استدارة يملأ المشهد بدورانه العظيم ونوره البهيج، والنجوم تحوم حوله. يُخبر من كان بجواره، يريد أن يجعله يرى ما يراه ليتأكد أنه ليس الوحيد الذي شاهد ذلك يقول: أترى ما أراه؟ ليرد عليه قائلًا لا. فهو الوحيد من رأى.

علم أنه الوحيد والشاهد الأكيد يذهب بعينه مرة أخرى غير مُباليا بما يحدث حوله، ينظر ويتأمل هذا المشهد البديع الذي بدأ في التغير والتحرك. فالقمر يتحرك، ويترك المشهد وليظهر خلفه تلك المدارات التي قد بينت كوكبًا هناك ثم يليه آخر، كأن الكواكب قد تجمعت أمام مشهده، وتزداد وضوحًا، فهي حقيقية جدًّا صادقة لا جدال كأنه بالفعل يطير فوقها، يراها

أمامه في عالم الواقع، وفي ظل هذا الانبهار وكأنه بالفعل هناك، يستيقظ من منامه يبتسم من جمال هذا الحلم الغريب الذي لن ينساه.

يستعد زهير للذهاب إلى عمله مصنع الأخشاب، يرتدي ثيابه ويتناول الإفطار مع زوجته هاجر، وعقله مشغول بهذا الحلم الذي سيقصه على أصدقائه. يودعها مُقبلًا إياها ليخرج من بيته، وبدأ يوم جديد.

يقابل صديقيه محمودًا وعدنان يسيرون مع بعضهم البعض إلى شارع المصنع. يتحدثوا حول عمل اليوم والسيد عوني وحاله. يقول محمود:

– تعرفوا إني طول اليوم إمبارح بفكر في حكايته أنا ندمان جدًّا بسبب ظني السيء بيه. كنت مفكّره بني آدم معندوش ضمير وغير سوى طلع عكس كده تمامًا.

زهير:

– مش قلتلك قبل كده؟ علشان تبقى تسمع كلامي. النهارده بإذن الله هنقعد معاه بعد الشغل على القهوة. الراجل ده مش عاوزين نخسره وأظن إحنا كلنا شوفنا قد إيه هوه غلبان.

عدنان:

– والله عندك حق يا زهير. نحاول مش مشكلة يكون صاحب لينا. مظنش هيكون عندكم مانع؟! يبقى نشرب مع بعض أي حاجة زي ما قولت وندردش معاه.

زهير:

- أيوه وبالمرة أحكيلكم حلم غريب قوى حلمته إمبارح. ده أغرب حلم حلمته طول عمري.

عدنان:

- حلم إيه ده يا زهير؟

زهير:

- خلّيها بعد الشغل خلاص قربنا نوصل.

السيدة العجوز تقف من نافذتها، تسقي زرعها وشمس الصباح تتسلّل إلى داخل حجرتها، لترسم ظلال هذه النباتات الخضراء البسيطة والمعلقة حول نافذتها الخشبية، العجوز تلاحظ الثلاثة متجهين إلى عملهم وزهير يتوسطهم. زهير يراها من بعيد يبتسم لحال هذه السيدة العجوز التي استيقظت مبكرًا، تحب وتهتم بنباتاتها وأزهارها الصغيرة البيضاء.

يصلون إلى المصنع كل منهم في عمله مشغول، والسيد عوني يمر عليهم كشخص جديد، كإنسان غريب لم يعرفوه من قبل، يُسلّم عليهم كأنهم يعرفوه لأول مرة، يتفقون الأربعة بالذهاب إلى المقهى المطل على شاطئ البحر.

الثلاثة ومعهم اليوم السيد عوني إلى هذا المقهى ذاهبون سعداء بصحبة رابعهم. يجلسون ملتفين يرتشفون أكواب من الشاي والنعناع واليانسون. كل يشرب ما يحب. ليقص عليهم زهير حلمه الذي رآه في منامه، يخبره السيد عوني بأنه يستطيع تفسير حلمه حسب معرفته البسيطة بالأحلام.

السيد عوني:

– اسمع يا زهير أولًا ممكن كلامي يكون صح، وبرضه ممكن جدًا يكون غلط. بس اللي أعرفه كويس عن رؤية الكواكب في المنام ليها معاني وتفسيرات كتير. القمر المكتمل اللي إنت شوفته في ظروف جلوسك وسط ناس كتير مش شايفين أي شيء من اللي إنت شايفه، ده معناه إن الحاجة دي تخصك إنت بس، والقمر المكتمل معناه عالِم ذو علم وفير، وخير كتير هتشوفه. الخير ده قريب أو بعد وقت طويل، وليه معنى تاني إن ممكن يكونلك شأن عظيم. أما الكواكب فده الشيء اللي خايف منه لأنه ليه تفسيرات مختلفة. إنت هتشيل على ضهرك مسؤلية كبيرة ممكن قوي يكون ليها مساوئ، وبرضه ليها منافع ده كل اللي أقدر أقوله والله أعلم.

زهير يبتسم:

– كل ده ليّا ! ياااارب يكون خير.

السيد عوني:

– إن شاء الله خير يا زهير.

عدنان يسأل السيد عوني، يريد معرفة مصدر علمه، فيخبره:

– دي كتابات قرقها لابن سيرين في تفسير الأحلام، وبعض الرموز ودلالاتها اقرأها يا عدنان ممكن توضح لك حاجات كتير بنحلم بيها ومش بنفهمها.

محمود يضحك:

- تعرفوا إني مفتكرش إني حلمت قبل كده.

يبتسموا على ما قاله محمود، يسأله زهير:

- ولا حلم يا محمود؟ مفيش بنت كده أو كده؟

- محمود:

- أنا بتكلم بجد مش عارف ده معناه إيه كلها أحلام يقظة،ولو حلمت بيكون نادر جدًا، وفي الغالب حاجات غير مفهومة مش عارف إيه السبب على فكرة دى حاجة مضايقاني جدًّا. إزاي مبحلمش زي كل الناس.

السيد عوني:

- اللي بتقوله ده يا محمود بيدل على شيء ممكن أقوله، بس خايف تضايق من كلامي.

محمود في شك من مدى معرفة، وفهم السيد عوني لذلك يخبره:

- قول والله متقلقش مش هزعل.

يبتسم السيد عوني،هذا الرجل الكبير الذي علمته الدنيا الكثير والكثير لا يريد أن يفصح عن شيء يقول:

- أنا مصدقت يا محمود بقى ليا صحاب، وإتصافينا خلاص، والله حقيقى خايف تزعلوا منى،دا إحنا لسه بنقول يا هادي خلينا نغيّر الموضوع ده.

يصر محمود في التحدث حول ذلك الأمر ليطمأنّ قلبُه حول شيء ما حدث له قديمًا، وأن ذلك ليس السبب يريد التأكد وإقناع نفسه أن السبب هو آثار العمل المجهد التي تسببت في انعدام أحلامه،ولكن في قرارة نفسه يخاف أن يكون السبب الصحيح هي مأساته القديمة التي لا علم لأحد من زملائه بها.

السيد عوني:

- حاضر يا محمود.. اسمعني.. في أسباب لعدم قدرة البني آدم إنه يحلم، وممكن نقول سببين مهمين ياااارب ميكونش واحد فيهم.

محمود تجهّمت ملامحه وتغيرت تعبيرات وجهه إلى القلق والتوتر حول أن ما سيقوله السيد عوني سيكون صحيحًا يقول:

- اتفضل يا سيد عوني.. عاوز أسمع إنت شايف إيه.

السيد عوني:

- الفكرة الأولى إنك يا محمود ممكن فعلًا بتحلم عادي، بس عدم تذكّرك يرجع لضغط نفسي شديد، أو كبت غضب كبير حول شيء حصلك في الماضي. ممكن تكون بتحاول تبعد بعض ذكرياتك القديمة، والمشاعر اللي عذبتك يوم من الأيام، أو فترة مهمة في حياتك. وبالتالي كل الخطر بيدور حول الذكريات دي، وعلشان إنت تتفادى الأفكار المؤلمة دي، تلاقي نفسك بتبني جدار كبير فاصل بينك، وبين ذكرياتك، علشان تهرب منها ومتفتكرهاش تاني بحيث تنساها.

خد بالك المقاومة بتقل خصوصًا وقت النوم، فتحاول تهاجمك في الوقت ده بالتحديد، أما بتكون ضعيف ورايح في النوم لكن في الغالب وده أظن اللي حصل معاك، بتقاوم الذكريات دي بطريقة إنت مش مدركها في أحلامك، فتقوم باستبعادها، وتصحى من نومك مش فاكر إنت حلمت بإيه بالظبط فلو حلمت بشيء فعلًا يا إما تكون عارف إنك حلمت بس مش فاكر أي تفاصيل، أو تنسى تمامًا إنك حلمت من الأساس.

والأمر التاني: إنك تكون بعيد عن ربنا فلو كان. لازم تراجع نفسك، وتصحح أي أخطاء موجودة. متزعلش مني، بس ده اللي أعرفه بخصوص الموضوع ده والله أعلم.

***

حكاية محمود

لأول مرة يرى أصدقاء محمود حاله بهذا الشكل، فعيناه تترقرقان في حمرة، والجفون تنطفئ. هذا الغريب من أراضي القرى الجنوبية في صعيد مصر. يحكي لهم محمود من هو لأول مرة:

– على فكرة دي هتكون أول مرة أحكيلكم حاجه زي كده أنا كنت طفل من أطفال ملجأ بسيط في مدينة قنا. متبني من أب وأم طيبين جدًا. أخدوني في سن صغير يادوب أعرف أمشي، وخلّوني ابنهم. عشت معاهم سنين طويلة جميلة جدًا، نسيت إني كنت عايش في ملجأ يوم من الأيام. ربنا رزقهم بعد وقت طويل بأخ جميل حبيته قوى كبرنا سوا وإتربينا سواسية في كل شيء لكن القدر خد أمي، وأبويا في حادثة على الطريق السريع. كان الحزن مالي قلبنا أيام كتير مكنتش بنام. كل واحد فينا كان بيشتغل في صنعة بيسترزق منها، وفضلنا كتير على نفس الحال مبنتكلمش كتير في الموضوع ده،وفي يوم قرّرت أسافر بره البلد أشتغل. ودّعت أخويا الوحيد.. كنا لحد الوقت ده كويسين جدًّا.. بس. بعد كده إتغيّر، وطردني

من البيت اللي عشت فيه طول عمري،لأنه شايف إني مليش حق في شيء. حقيقي عنده حق بس العشرة اللي هانت عليه حقيقى دمرتني. كنت بحبه جدًا لأنه الوحيد اللي كنت أعرفه في الدنيا دي.

قرّرت أستقر، وأعيش جنب عملي في مصنع الورق. كان الوقت بيمر بصعوبة مش قادر أستوعب موقهم، وأخويا اللي هنت عليه، كأني لم أكن لدرجة إني حسيت إني ممكن أتجنن في يوم من الأيام بمجرد التفكير في اللي حصل.. متعرفوش قد إيه كنت مُدمّر، لكن كنت بحاول أنسى بالشغل لساعات زيادة،وأتعب نفسي دايمًا بأي شغلانة. أرجع تعبان جدا من شغلي أنام عشان أبدأ يوم جديد، ومفكرش في الموضوع ده نهائي.

المصنع كان موجود على طرف المدينة، ووراه مساحات فاضية كتير كنت بقعد فوق المصنع اتفرج على المساحات الفاضية اللي كانت دايمًا مليانة بذكرياتي المؤلمة شاب صغير مراهق جسمه ضعيف ليه أحلام مدمرة، ذكريات مؤلمة يحاول ينسى لكن الجرح مكنش بيتلم.

حبّيت أغيّر من إيقاع يومي.. كنت هاوي جمع بواقي الورق المهمل من المصنع كنت بعمل رسومات جميلة بيه،أحاول أضيّع أي وقت ممكن يفكّرني باللي فات بس كان الوجع موجود باستمرار في كل شيء.

يخبرهم محمود موضحًا مأساته الأخيرة التي كسرته تمامًا في هذا اليوم الذي كان عائدًا من مصنع الورق حيث يجد قدماه تسحبانه إلى أحياء وطرقات لم يشاهدها من قبل، يخبرهم ويحكي أنه كان يسير دون توقف بين الشوارع وجدران البيوت المبعثرة، كانت قدماي تسحبانني وتشدانني إلى

أعماق القرى حتى علمت بانني قد تهت في الطرقات، لا أعلم موقعي تاركًا نفسي لهذا الهيام الزائف أفكر في كل شيء أسير وأطوف دون توقف حتى رأيت فتاة جميلة تجلس تذرف دموعًا حزنًا على أسرتها التي أكلتها النيران في حريق كبير، قد أصاب قريتها، فتقدّمت بخطوات حذرة نحوها، والقلب في تعجب من روعة جمالها، وصفاء وتعابير وجهها الصادقة النابعة من أعماقها سائلا إياها:

- ماذا أصابكِ يا فتاة؟

ردّت علي في حذر وخوف بكلمات يملؤها الأسى والحزن الشديد:

- عائلتي ماتوا جميعًا في هذا الحريق الذي أصاب قريتنا.

وأخذت في البكاء يملأ جسدها البالي، وصيحات من أعماق جوفها تملأ الأنين.

تذرف عيناي دون الدموع وقلت لها:

- لا تحزني ليس لنا اختيار في الموت، وجميعنا ذاهبون، لا محالة من ذلك. سنغرس عمرًا جديدًا لمن هم خلفنا فكفاكِ نزفًا يا فتاة.

سألتني في شدة وجدية:

- ماذا تريد منى بسؤالك؟ وماذا تريد من هذا الاهتمام؟

قلت:

- لا أريد شيئًا غير أنني لم أعرف لَمَ شدني الاهتمام وجعلني كل ما أردته أن أطمئن على حالك!

- حسيت إن البنت بعد الكلام ده إتطمّنت من ناحيتي شويه، وبدأت تكمل كلامها، وأنا وهي حسينا إن الحب مكتوب لينا ويتبقى لنا توفيق ربنا، ووعدتها أشوفها تاني يوم في نفس المكان وفي نفس الوقت.

في اليوم ده روّحت بإحساس جديد،ومختلف تمامًا عن أي يوم عشته في حياتي.. بحفظ الطريق وانا مروّح علشان أقدر أرجعلها زي ما وعدتها، وإزاي مقدرش أفتكر الطريق.. دي أجمل بنت في الدنيا، وأجمل حاجة حصلتلي برغم سوء الظروف، ورغم اللي صابها وصابني بس ده أفضل طريق. وهي دي بدايتي اللي معرفش غيرها في الدنيا، ولا كنت عاوز أعرف حاجة تانيه غيرها. المهم روّحت، ونمت كويس لأول مرة بعد وقت طويل من وفاة أبويا وأمي. صحيت تاني يوم مبسوط رايح شغلي مستني أخلص علشان أستناها من بدري ذي ما كنا متفقين، وكانت الصدمة الكبيرة اللي دمرت كل حاجة فيا. شغّال على آلة كبيرة خبطت راسي بقوة خلّتني أفقد الوعي. بعدها صحيت مش فاكر أي شيء. لكن كان قلبي موجوع طول الوقت مش عارف ليه، أحاول أدوّر على أي دليل يخصني لكن مفيش غير اسمي. زمايلي ميعرفوش أي شيء عني إلا إني من جنوب مصر واسمي محمود.

بهدلتني الدنيا،ويوم ورا يوم وشهر بعد شهر، عدّت سنين فقدت الأمل إني أعرف حقيقتي، لقيت نفسي هايم هنا وهناك، من بلد لبلد لحد ملقيت مصنع الخشب، ومع الوقت إفتكرت وذاكرتي رجعتلي تدريجي، ويا ريتني ما إفتكرت أي شيء، كان بيعذّبني لُقاها والميعاد اللي موفتوش. إزاي

مقدرت أنفذ وعدي ليها. طيب حالها إزاي دلوقت؟ هي كويسه،لا الدنيا كملت عليها وهدلتها؟ ياااااارب تكون بخير.

محمود الفتى المستهتر السطحي إنسان مسكين، عانى الكثير وشاهد أمورًا تقسم القلوب. كان ذلك عكس توقعات ومعرفة أقرب أصدقائه بحاله،وكيف يكون ممكنًا أن نرى أشياء قد تكون خاطئة جدًا فأكثر الأشياء عقلانية وواقعية من الممكن أن تكون أكثرها شذوذًا وبعدًا عن الواقع. قد تكون الابتسامات والضحكات تتستر على جنون خفي وأحزان ومصائب مسمومة. هؤلاء الناس السائرون بيننا لهم عوالمهم التي لا ندركها، إلا إذا ذهبنا إلى اللب مباشرة. هذا الفتى محمود يكفيه أنه ما زال محتفظًا بعقله يكفيه أنه يسير بيننا.

يخبرهم محمود ويُكمل حديثه والكل ينصت جيدًا لا أحد يقاطعه فهم يتعرفون عليه لأول مرة:

– والله كان الملجأ اللي عشت فيه طفولتي وحرماني كان أحن عليّا من أي شيء في الدنيا.

السيد عوني:

– يااااااااه يا محمود شايل في قلبك كل ده؟حقيقي اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته.

عدنان:

– يا محمود ربنا كريم، ويإذن الله ترتاح في حياتك.. أنصحك تتجوّز بنت طيبة تنسّيك الهم اللي عشته.

محمود:

– أكيد لأ.. عمري ما هفكّر في أي بنت غيرها. هفضل أدوّر عليها طول عمري، ولازم ألاقيها.. مش هتجوّز أبدًا غيرها.

زهير:

محمود يا أخويا كل شيء ليه سبب، إوعى تفتكر إنها مش بخير. ربنا أحن عليها منك، ومن الناس كلها. إستنى. إزاي هتلاقيها؟ مش الكلام ده حصل من سنين.

يرد عليه محمود:

– أيوه صح.. بس حقيقي من غير تريقة جوايا حاجة بتقول لى دايمًا إنك هتلاقيها. السبب إيه مش عارف. بس متأكد إني هشوفها تاني.

زهير وعدنان والسيد عوني:

– إن شاء الله يا محمود.

***

حبيبته

الأربعة يستمرون في التحدث حول أمور الحياة بطيبها وشرها بقسوتها ونعيمها، حتى يستقر الليل ويخبرهم بأنه وقت الذهاب. كل إلى بيته. زهير يودّعهم عائدًا إلى بيته، ليجد حبيبته في إعياءٍ شديد، مريضة متكأة على كرسي بجانب الباب في انتظاره، ويظهر عليها هذا الاكتئاب تخبره وتدفعه للبكاء تقول:

- أنا حاسه أنه جه معادي. حاسه إني هموت قريب.

زهير وفي عينيه الدموع يطمئنها يخبرها إنه مجرد مرض بسيط. يواسيها، ويعتذر لها عما فات عن تأخره دائمًا يخبرها:

- والله مش هتحرك من هنا لحد ما تبقى كويسة وأحسن من الأول. متزعليش منى.

العين تدمع، والقلب مخنوق، والدنيا إلى ظلمة تذهب عندما يرى فيها المرض الشديد،يأخذها للطبيب الذي يصدمه ويُصعقه بسوء حالتها، وعمق مرضها الذي فاته هذا الشفاء.

زهير:

- مفيش أي فرصة. أي أمل. متقلش أنها خلاص. إزاي بس؟ قولي ممكن نقدر نعمل إيه؟

الطبيب:

- شوف يا زهير ده رأي العلم.. حالتها للأسف متأخرة جدًا، لأن المرض انتشر في جسمها، واتمكّن.. كل اللي أقدر أعمله إني أكتب لها على مُسكنات تخفف عنها الألم.

لم يقتنع زهير وأخذ في البحث هنا وهناك وكانت النتيجة أن الكل قد أجمع على صعوبة حالتها، وليس لها غير الانتظار لهذا الميعاد.

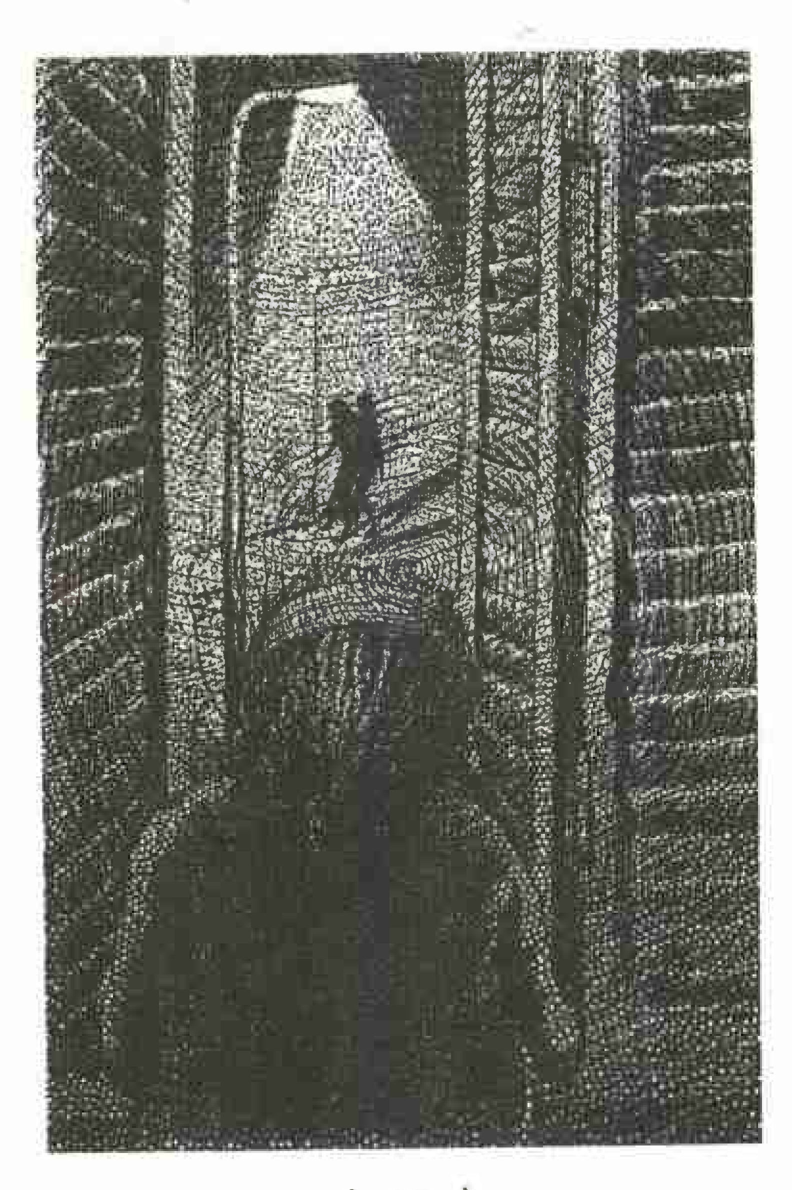
زهير وزوجته عائدان من آخر لقاء مع أحد الأطباء الكبار، يسيران في هذا الشارع. تحدثه في محبة عن مدى حبها له - تعلم أنه يتعذب على حالها يتألم من فكرة فقدانها. تخبره:

- متحزنش يا زهير ده معادي، وأنا راضيه بيه.. مش عاوزاك تعيش حزين بعديا.

يخبرها كم هي جميلة وكم هو يحبها، لا يريدها أن تنتبه لمرضها يقول:

- إزاي بتقولي كده مش هيحصلّك حاجة. إن شاء الله هتبقى كويسة.

السيدة العجوز ترى زهير، وترى زوجته لأول مرة، ولكن من حالها ترى أن سوءًا هناك يحدث. فزوجته يظهر عليها الإعياء الشديد، لتدمع العجوز حزينة على حاله وحالها. غير مُطمئنة حول ما سوف يحدث لهذه الأسرة الصغيرة.



يستقر في بيته معها تاركًا عمله، وحال حبيبته تسوء يومًا بعد يوم، لتذهب بلا رجعة وتصعد روحها إلى العلا، وزهير في انهيار تام. غير مدركٍ أنها قد رحلت. يزوره الأهل والأصحاب يأخذ هذا العزاء، وفي قلبه شكٌّ لما حدث كأنه كابوس مرير. يكاد يقف في عزاء زوجته، لا يعي أنها قد رحلت عنه إلى أمد الدهر، لا رجعة ولا نظرة منها بعد اليوم.

ليس كل فقدان قد ينسى، وليس كل حبيبة كحبيبته. فهي بالنسبة له البداية والنهاية. هي الاتزان، والجنون. هي الفرحة والحزن، هي السكينة والبيت الهادئ الذي لا يوازيها أحد على الإطلاق. بالنسبة له كل النساء طرقات مائلة معوجة إلا زوجته حبيبته، فهي الطريق الوحيد، والطريق المستقيم الذي مُهد له ليسير به ويتمسك به.

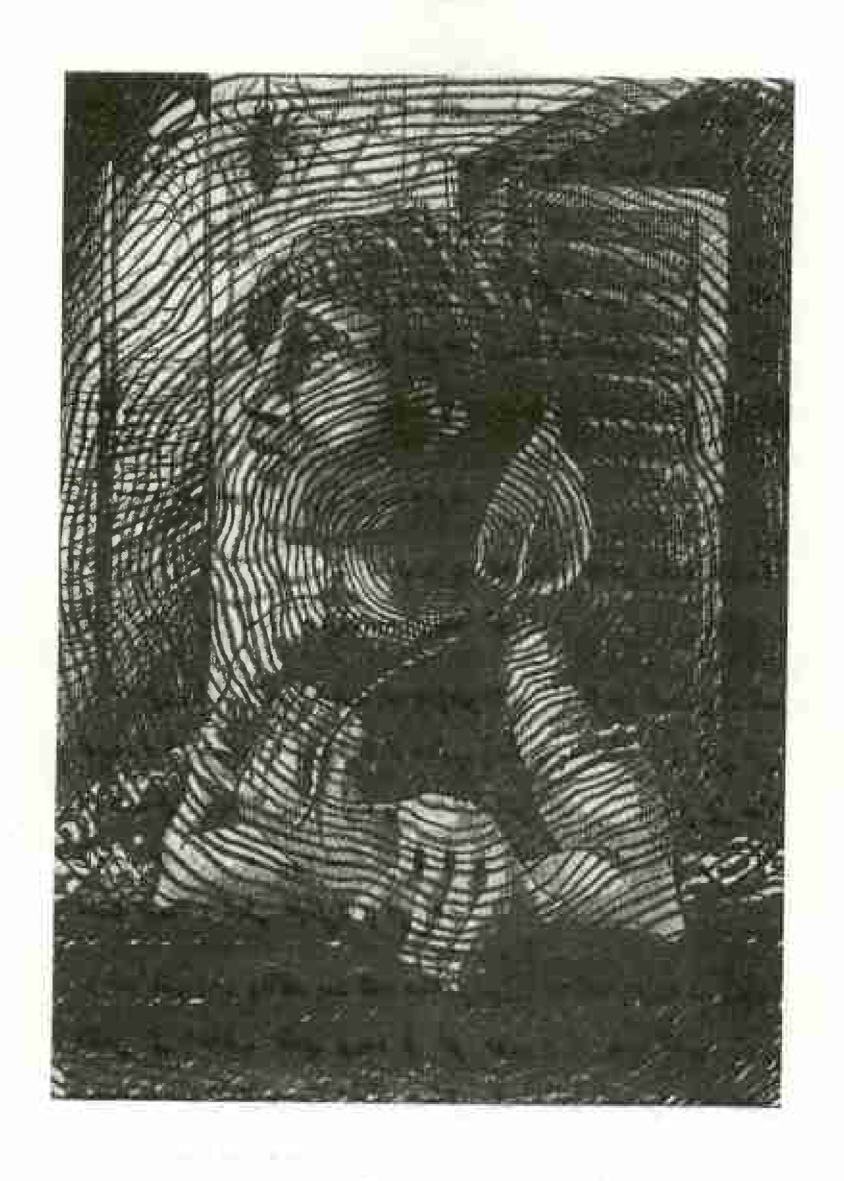
تمر الأيام كالشهور، وحال زهير في انحدار يسيطر عليه هذا الاكتئاب الشديد، يزوره الصديقان محمود وعدنان ومعهما السيد عوني لمؤازرته والوقوف بجانبه، يساعدونه ويحاولون التخفيف عنه، يخبرونه بالعودة إلى العمل لكي تسير الحياة حتى يشغله عمله بعض الشيء عن حزنه واكتئابه الذي قد يضره بشدة.

السيد عوني:

- كفايه حزن عليها. حالتك صعبة جدًا وحقيقي خايفين عليك. مظنش إنها ترضالك الحال ده من بعدها. لو مش عشانك، يبقى عشانها على الأقل. كلنا هنموت يا زهير ومفيش حد باقي. مسيرنا كلنا نحصلها، بس كله في ميعاده. أكيد هي في مكان أحسن من هنا بكتير.

العنكبوت الأبيض

كلمات أصدقائه ووجودهم بجانبه، يخفف بعض الشيء هذا الألم الذي سكن بداخله بعد وفاة حبيبته. يخبرهم بالعودة غدًا إلى المصنع في الصباح الباكر، زهير في بيته وحيد مسكين. كل ركن من البيت يذهب إليه يتذكرها، يحاول إطعام نفسه المشتاقة إليها في هذا الوقت المتأخر من الليل ليقف في شرفته ليس كأيامها. يتخيل أنها تنتظره في فراشهما. تنتظر عودته، وفي ظل هيامه وتفكيره العميق بها وحياته معها، يشاهد هذه الأعمدة المنيرة بدأ ضوئها يزداد، ونورها يشتد في صقيع هذا الليل البارد. يرى هذا العنكبوت الأبيض الذي يتسلق ببطء هذا العمود الخشبي القديم والقريب من بيته ليقترب ويقف على مصباحه ليرمي ظلاله المخيفة على جدار شرفته. كان الأمر غريبًا ومخيفًا دفعته للذهاب إلى الداخل وبدنه يرتعد تعبًا وخوفًا.



العنكبوت (1)

خيوط تتحرك تحت عنقي لااااااااااا. إنها خيوط العنكبوت. آآآه أريد إزالة هذا الشعور. نزع هذه الجلود. ابتعدوا عنى لا تقيدوني. أريد الذهاب. إنه الأبيض هنااااااك. انظروا... ينتظرني خلف الباب. اقتتلوه أو اتركوني له قبل أن يصنع هذه البيوت.

يستيقظ في وقت متأخر متكاسل وجسده العليل يعوقه لا طعام ولا اهتمام. يذهب إلى عمله، وأصدقاؤه وزملاؤه يواسونه مرحبين بعودته. ليبدأ في عمله دون شغفٍ. لا شيء متقن كأنه يحمل جبال ثقال على ظهره المقسوم. كل شيء يفعله يذكره بها ينتظر العودة إلى بيته دونها. يعلم أصدقائه أنه في غمٍ شديد، يحاولون التحدث معه لإضاعة الوقت وإلهائه، لينتهوا من العمل ومحاولة التخفيف عنه بأي طريقة. ينتهي العمل والكل يبدأ في الرحيل، وزهير يودعهم يمتنع عن مشاركتهم الجلوس على مقهى الشاطئ. يستأذنهم بالرحيل.

عائدًا إلى بيته غير قادر على نسيانها يُفكر ويُفكر في عينيها البراقتين، وقلبها الطيب، وأحاديثه معها، وحبه لها، وقبلاتها، ونظراتها. إنه كميت يسير على رجلين. ينظر إلى السماء فهي مظلمة. الوقت طويل ممدود، لا يمر ولا يرى فيه نهاية، لا يرى شيئًا غير عودته إلى البيت ليحاول تجاوز عذابه الذي لا ينتهي.

يقترب زهير من بيته ويتمهل في المسير لشيء يضايقه منذ ليلة أمس يريد أن ينظر إلى هذا المصباح الذي شاهده، وعليه هذا العنكبوت الأبيض المُخيف. يجد أن لا شيء موجود غير خيوطه المشدودة بين عامود الإنارة وجدار البيت. حتى يتوقف لينتظر خروجه من مكان ما، ولكن لا شيء يحدث، ليصعد إلى بيته ثم إلى شرفته ممسكًا بهذه العصى محاولًا هدم خيوط بيت العنكبوت التي تخيفه بشدة، وبالفعل يفعل هذا الأمر الطفولي السخيف.

***

رحلة بعد عام

يمر عام على وفاة زوجة زهير، وكل يوم يمر والحال كما هو. من بيته إلى عمله. ليعود ويُكرر نفس هذا الإيقاع الرتيب. وأصدقاؤه في العمل غير راضين بحاله، الذي يتجه إلى الأسوأ. السيد عوني مع عدنان ومحمود يتحدثون حول الذهاب إلى رحلة لمدينة القاهرة في آخر هذا الشهر، ليتفقوا على إقناع زهير بمشاركتهم هذا اليوم حتى ينجحوا بالفعل في إقناعه بعد محاولات عديدة.

يقفون على محطة القطار، ينتظرون القطار المتجه إلى مدينة القاهرة، غير متفقين على وجهة محددة للذهاب، والكل مستعد للاستمتاع بيوم جميل. يقول السيد عوني:

- أوعدكم هتنبسطوا قوى النهاردة وخصوصًا شوارع مصر القديمة. ياما زرتها ومشيت في شوارعها اللي قد إيه بتحسسك بإن البلد دي جميلة وروحها الدافية اللي مليا المكان إن شاء الله أول مكان هتزوره وبنصحكم بيه شارع المعز والحسين وخان الخليلي والغوري مستحيل يتزهق من الأماكن دي، وهنقضي يوم جميل هناك. إيه رأيك يا زهير؟

زهير يحاول الخروج من حالته بعض الشيء:

- للأسف مزورتش قبل كده الأماكن دي، بس متشوق أشوفها من زمان، والله فكرة جميلة وهيبقى يوم جميل إن شاء الله يا سيد عوني.

***

يدخل القطار إلى المحطة بنفيره القادم من بعيد ليبلغهم بالاستعداد. المسافرون يهرولون مندفعين إلى أبوابه في زحام خانق. أصوات الأحذية والمعاطف والجلابيب والعصيان والأواني النحاسية، كلها تصنع هذا الرنين والصخب الشديد الذي لم يُعجب الأربعة، إلا زهير الذي لم يكترث لشيء سوى باله المشغول. إلى أن يتقبلوا ذلك بسرعة مندفعين معهم لكي يجدوا مقعدين بصعوبة شديدة. ليبدأ القطار نفير الذهاب وهذه العجلات تبدأ تصنع النغمات المتتابعة التي تشبه دقات الطبول في حفلة زار قديمة.

الأربعة جالسون وزهير يقف لهذه السيدة الكبيرة التي تجلس مكانه. يستند على هذا الكرسي، ينظر خارج النافذة سارحًا فيما خلفها من آلاف المشاهد التي لا تنتهي، يفكر فيها، يطلب منه محمود الجلوس بدلًا منه ليستريح، ليرفض زهير حتى يأتي ميعاد نزول هذه السيدة المسنة، ويعود زهير إلى كرسيه.

عدنان:

- السفر في القطر متعب بس جميل قوى يا ريت نكررها دايمًا.

محمود:

- والله عندك حق بس الأجمل لّمتنا سوا، ولاّ إيه يا زهير؟

زهير:

- والله مبسوط جدًا معاكم أنا حالي بقى أحسن بكتير من الأول. شكرًا يا جماعة إنكم أقنعتوني لأني فعلًا مكنتش هسافر معاكم لولا إصراركم.

تتصاعد أصوات عجلات القطار الرائعة،ويتباطأ القطار تدريجيًّا ليتوقف عند مزلقان فاصل بين يمين القطار وشماله، فيتوقف تماما،يخرج زهير رأسه من النافذة وأصدقائه معه، يريدون معرفة سبب التوقف في مكان غير محطة القطار ليروا هذا العامل الذي يرفع العائق الحديدي ليمر هؤلاء المارة من أهل تلك القرى، يجرّون بِغالهم وأبقارهم، تسبقهم تلك العجلات، وإطارات السيارات التي تمر مسرعة إلى الجهة المقابلة. ينتهي ذلك ببطء ليغلق العامل العائق، ويتحرك القطار كأنه معتاد على ذلك. وزهير يستمر في ملاحقة بصره ومتابعة المارة، يجد فيهم جمالًا بسيطًا خاليًا من التكلف.

يهيم الجميع وينامون حتى يضيع الوقت. يصلوا إلى محطتهم الأخيرة ثم إلى الأحياء القديمة بشوارعها المزدحمة الضيقة منها والواسعة، تصنع هذا الدفء في قلوب المارة يسيرون في شوارعها في انبهار من عراقة وأصالة هذه المدينة ذات الجذور السحيقة، ويقتربون من بيت قديم يُلفت انتباه زهير. بيت سياحي للزيارة والتمتع بمعالمه الأثرية القديمة. يقع بين تلك

البيوت التي لا حصر لها، وهذه المشربيات المُطلة على الشارع والتي لها هذه الصفات من الأصالة تتجمع حولها هذه النغمات المختلفة من أصوات الباعة الجائلين،وصناع المعادن،وبريق الأواني النحاسية المطروقة التي تغمرها تلك النقوش الزخرفية الكثيفة.

على باب هذا البيت لافتة ((بيت السيد الخولي)) هذا البيت الأثري الرائع القابع في أعماق أحياء القاهرة القديمة. يخبرهم زهير:

- البيت ده جميل جدًا. تعالوا ندخله ونشوف فيه إيه بدل ما إحنا قاعدين نلف من بدري.. إيه رأيكم؟

يوافق الجميع على الدخول، يدفعون تذاكر المرور الزهيدة إلى هذا الحارس المسن، الذي وجدوا فيه بعض الغرابة يبتسم لهم:

- نورتوا البيت. اتفضلوا.

الأربعة يدخلون البيت إلى هذا الرواق الطويل المؤدي إلى قلب البيت. إنهم في انبهار ورؤوسهم إلى أعلى يتأملون عظمة وقدم البنيان. في مقدمتهم السيد عوني، وزهير سعيدًا بما يرى مبتسمًا لهذا الوقت الذي يمر بصحبة أصدقائه. الجدران يتدلى منها الكثير من القناديل المضيئة المشعة نورًا في أرجاء المكان. زخارف تمتد من أسقف الحجرات إلى الجدران التي تتلامس مع أرضية المكان.

خطوات مُتتابعة وبطيئة، تأخذ عين كل منهم إلى هذا الاتجاه المختلف، هائمين في الجمال المختفي داخل هذا البيت. حجرات متنوعة أشكالها،

وأروقة تجعلك تتوه فيها حبًّا وعشقًا في روعتها وصدق من شيدها وعظمته إن البيت كبير متعدد الأركان كأنه لا ينتهي، متعة حقيقة لزوارها كل منهم يشده ركن من أركان المكان ويجذبه، يبتعدون عن بعضهم البعض، يخبرهم زهير بالتجمع والعودة هنا بعد نصف ساعة حتى لا يتوه ولا يتأخر أحدًا عن الآخر.

***

ممر بيت الخولي

زهير بخطواته المتشتتة، ورأسه التي تدور باستمرار، يريد أن يجمع ويستمتع بكل شيء يراه في نفس الوقت في اهتمام يتابع عظمة البنيان وإتقانه، فحرفته وعلمه الواسع بصنعته قد منحته هذه الثقافة البصرية، التي ساهمت في تذوقه الجيد ومعرفة قيمة ما يُرى. يصل إلى رواق طويل ممدود له سبعة أبواب. أربعة عن يمينه، وثلاثة عن شماله. يحاول فتح تلك الأبواب فضولًا منه بمحتواها لكن جميعها مغلقة، يلتفت إلى هذا الباب الغريب المُتبقي، الذي قد اختلف عن باقي الأبواب في كون مقبضه ليس في نفس المكان، إنه في الأسفل، كأن صانعه أراد لمن يفتحه أن ينحني لسبب ما.

زهير في غرابة من هذا الباب، وقشعريرة تمتد من ذراعه إلى عنقه، ينبش جلده حتى تهدأ تلك الإثارة والشعور بهذه الحكة المُفرطة. ما حدث قد أخاف زهير ليُحاول الذهاب والابتعاد عن هذا المكان، ولكنه الفضول الذي دفعه للعودة وفتح هذا الباب الغريب حتى يُمسك بهذا المقبض المعدني البارد ليدفعه، ليجد تلك الذبذبة الطفيفة التي تُدخله إلى ممرٍ طويل

وغريب عن باقي البيت يمر بقدميه بحرص إلى الداخل، يشعر بهذا السكون الشديد. ينظر إلى سقف الممر الذي زاده غرابة وإعجاب، فالسقف مُرصعًا بنجوم خماسية الأشعة، تشع كلما اندفع إلى الأمام. يسأل نفسه: ما هذا المكان؟ وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان ليرى في النهاية باب بعيد في نهاية الممر،وتأتي خطوة تلو الأخرى، يتأمل محاولًا الفهم لهذه النقوش، لأشخاص محفورة على الجدران، ممدودة أيديهم إلى السماء سماء الممر الذي قد تشكل بهذه الحيوانات والكائنات الغريبة كأنها أبراج السماء. النجوم تتلألأ كأنها حية وحقيقة لواقع غريب مسارات ومدارات محفورة على الجدران وخلف هذا الباب. إنها حقيقة في دنيا المحال، وزهير يكاد يصرخ من هذا الجمال المخيف.

غير مبالٍ، سارحًا يسير لا يرى قدمه التي ذابت في ظلام الأرض كأنه ليل شديد، يرتعد ويحاول الإسراع، لكن رغمًا عنه حركته في ثبات، ليس بإرادته لكنه الممر الذي أحكم سرعته وجعله يسير تحت قوانينه، يشعر زهير أن الوقت غير طبيعي وأنه ذاهب إلى أحد الأزمان. فضوله يسيطر عليه ليتابع في شغف المسير إلى نهاية الممر دون وعي للأمام، دون إكتراث لما قد يكون خلف الممر. كأنه يسير في ممر كونزمني، لا يعي أنه ذاهب لزمن غريبٍ إلى الأمد دون رجعة.

ينتبه ويشعر بهذا الضغط الشديد الذي يُدمي أذنيه، كأنه في فقاعة دائرية مضغوطة بشدة حول جسده، يرى أشياء خلفها، لا يدرك معناها كأنها مرايا شفافة تعكس صورته المتكررة، وتعكس ما خلفها.



هذا التكرار الشديد لهذه الأشياء المُبهمة تجعله يصرخ خوفًا حتى يدفع هذا الباب بقوة، ويجد هذا الرِّواق الطويل يجرى فيه مسرعًا ليهرب خارج هذا البيت لينظر حوله وهو يكاد يتنفس. يزداد غرابة تدفعه للبكاء. إنه شارع غريب أقدم من شارعه، وأناس كأنهم من زمن قديم. يُفكر في العودة ولكن الخوف قد تمكن منه. فمن المحال دخول هذا البيت مرة أخرى. يسأل نفسه مرارًا: إلى أين ذهبت؟ وماذا تركت؟ ما هذا الشارع؟ومن هؤلاء الناس؟

يكاد يتحرك يلتفت من مكانه، ينظر إلى جميع الاتجاهات، يعلم ويرى أنه ذهب إلى مكان غريب وزمن آخر تدمع عيناه لما قد تركه خلفه، يتذكر حبيبته التي يتمنى وجودها معه، ولكنه قد ابتعد كثيرًا عنها، فالذكرى أصبحت مشوشة بذهابه إلى هذا الزمن وذاك المكان. لكن حبه لها متمسك بكل شيء مرتبط بها.

***

حماد "بائع السجاد"

يتحرك بصعوبة شديدة ينظر إلى وجوه هؤلاء الناس وأزيائهم الغريبة، التي كان يراها في الصور والرسومات القديمة لبعض المستشرقين القدام. إنه زمن قديم يحاول استيعاب وفهم ما يجري يُحدد البيت هذا المكان مبتعدًا شيئًا فشيئًا، وخطواته هزيلة حتى يدرك هذا الدكان القديم، الذي يُباع فيه السجاد. يسأل صاحبه بحرص وبشكل محدود لا يريد الإفصاح عن شخصه وما قد مر به فلا يظن فيه الجنون يسأله:

– بعد إذنك أنا غريب، ومحتاج أعرف إحنا فين. ممكن تقولي الشارع ده اسمه إيه؟

يفهم بائع السجاد كلمات زهير بصعوبة، ويستشعر بشيء غريب من لهجته يقول:

– هذا هو الشارع الأعظم.

يسأله بائع السجاد، وهو في شك من أمره وفي غرابة متزايدة من لهجته وطريقة حديثه:

- من أين أنت؟ وما أرضك؟

زهير يحاول تغيير طريقته في الحديث ليتأقلم بشكل سريع حتى يقلل من غرابة أمره، فملابسه غريبة وطريقة حديثه كذلك:

- لقد أتيت إلى هنا باحثًا عن العمل لكن لا أعرف الطرقات، ولا أسمائها، اعذرني وأتمنى أن تتحمل أسئلتي.

يرى بائع السجاد فيه هذا الإنسان المسكين الذي ضاع حقًا، ويدفعك للشفقة على حالته البائسة. يحاول سماعه واستيعاب ما مر به.

بائع السجاد:

- تفضل اسأل ما شئت فكلي آذان صاغية، ولك عندي الإجابة على كل ما سألت.

زهير:

- ما السنة؟ وفي عهد من؟

بائع السجاد يرد في غرابة:

- هذا زمن المعز لدين الله الفاطمي.

زهير يُصعق من صدمة هذا الرد الغريب ويتابع أسئلته والبائع صبور حليم يتقبل أمر هذا الغريب وأسئلته الأغرب:

- وما تاريخ اليوم؟

بائع السجاد:

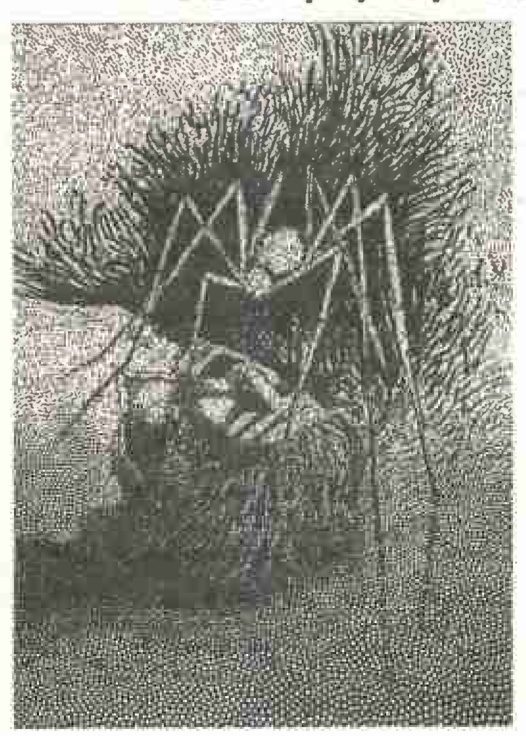
- إننا في 362هـ، فهذا اليوم مهم وسيزورنا في المساء الخليفة المعز لدين الله، وسيكون احتفال كبير، وستوزع الولائم وستلون البيوت وتُنشر البهجة وستقام الأفراح .

علم زهير وقتها أنه في زمن غير الزمان، يحاول إدراك ما يحدث حوله، ينظر إلى يديه ويندفع إلى مرآة كبيرة داخل دكان بائع السجاد، يجد نفسه هذا الإنسان لكن جلده ولون بشرته تشبه أهل هذا الزمان كأنه منهم. العرق يسيل من جبهته، وعنقه يختنقه في حرقة تشعره بهذه الحكة يشعر بحرارة جسده تتجمع إلى رأسه ليسقط في إغماء على وجهه. يغلق عينه تدريجيًّا، ليتخيل أنه يرى عند ركن بعيد من الدكان هذا العنكبوت الأبيض المخيف الذي يتدلى من خيوطه السميكة متجهًا نحوه مسرعًا يحاول الصراخ لكن سرعان ما يغيب تمامًا عن الوعي في حالة من الرعب الشديد.

***

العنكبوت (2)

لا بأس.. لا بأس بذلك إنه العنكبوت. في رأسي يسير يبني خيوطه تحت الجلود. أنتظر لأسنَّ أظفاري لأنبش هذا الجسد العليل لأصرخ في وجه من يعاندني وأنادي لشيء غير موجود.



في حالة إغمائه، يحلم زهير بهذا الكوكب الصغير الذي يتلألأ وقت مغيب الشمس حتى ينفجر في سماء رؤياه، يكون تلك الشظايا المتوهجة والتي تتجه في انفجارها إليه- تقترب منه في انتظام ليزداد بريقها وتوهجها شيئًا فشيئًا حتى تكاد تلمسه يستيقظ من هذا الحلم يسأل البائع الذي كان بجواره وقتها:

– ما الذي حدث لي؟

بائع السجاد:

– لا تخف إنني "حماد بائع السجاد" لقد غبت عن الوعي وأنت لا تزال معي في دكاني.

زهير يتمنى أن كل ما حدث كأنه حلم، لكنه مصدوم بهذا الواقع الذي قد فاق الخيال في الغرابة، يرد عليه محاولًا تقبُل هذا الزمن الغريب، وهذا الواقع المحتوم الذي لا مفر منه:

– شكرًا لك يا سيد حماد. أعلم أنني قد أثقلت عليك بأسئلتي وما قد حدث لي إنني غريب عن هنا أبحث عن لقمة العيش، ولي علمٌ بصناعة الأخشاب فهل لديك علم يدلنى أو أحدًا يُرشدنى إلى طريق رزقٍ طيب من عرقي وكدي.

حماد "بائع السجاد":

– والله لأرشدك وأساعدك أيها الشاب الطيب انتظر هنا حتى صباح الغد، فهناك قافلة سوف تذهب إلى مدينة الإسكندرية، وسأرسلك إلى

شخص يُدعى "جعفر البناء"، فهو صانع ماهر في صناعة مراكب الصيد، وسأكتب رسالة لك ستعطيها إياه فور رؤيته. فسيكرمك ويجد لك العمل، وسيعطيك مكانًا يؤويك انتظر معي هذا اليوم، وشاركني في عملي لنسترزق ببيعنا بعض من هذا السجاد.

زهير يهم في مساعدة السيد حماد في تنظيم هذا السجاد اليدوي الجميل، وعرضه أمام الدكان ليسمع هذا النغمات والإيقاعات القادمة من بعيد والتي تتزايد وضوحها تدريجيًّا مع مرور الوقت، وبالفعل تبدأ ملامح مظاهر تلك الاحتفالات فور اقترابها، ويزداد الصخب شيئًا فشيئًا، فقارعو الطبول يصنعون تلك الإيقاعات الهمجية المنظمة، مع نغمات وذبذبات أوتار هؤلاء النساء طويلات القامة اللاتي يمسكن في ثبات تلك الآلات الوترية المعروفة ب- "الكنارة"،يتمايلون في منظومة واحدة وثابتة، يتزينون بأنواع مختلفة من الزينة وبتلك الملابس الحريرية الشفافة، التي تتعانق ألوانها مع بعضها البعض، فتختلط هذه الألوان البراقة مع ألوان أجسادهن التي تشفها تلك الأقمشة الناعمة، المكسوة بالزخارف النباتية البراقة.

تتمايل الراقصات ليصنعوا الإيقاعات البسيطة والمثيرة، ويلتف حولهم هذه المجموعات من الرجال ذوي العمم الدائرية ذهبية اللون، يصنعون هذه الأصوات المنتظمة من الإيقاعات الشعبية الحماسية، التي تخلقها هذه الطبول الكبيرة، المغطاة بأوراق من الذهب معهم يسير خلفهم هؤلاء المُطربون، كخلفية لهذا المشهد البديع الفيلة المغطاة بأنواع من الأقمشة المنسوجة والمطرزة بالآلئ البيضاء الكبيرة كل ذلك يجتمع ليصنع هذا

الإيقاع القويم المنتظم، الذي يكسبك الحب والشجن في هذا الجمال الدنيوي.

يطوف زهير بين جموع المحتفلين، تاركًا السيد حماد في دكانه، يهيم بين جمال وعمق هذه الألحان الغريبة، التي يسمعها لأول مرة في حياته، ليستشعر بهذه المحبة بين هؤلاء الناس وهذا الزمن الغريب. يهيم في المدى لساعات والوقت ينفذ منه دون أن يشعر، ليتوقف فجأة متذكرًا نفسه مسترجعًا حاله، وعينه تنظر إلى قدميه يفكر إلى أين ذهب وما الذي قد تركه خلفه. حتى يحرك قدميه عائدًا لبائع السجاد وحزنه يغلبه، يفكر في حبيبته التي أخذها القدر.



القدمان مثقلتان والعينان معهما، في كل همسة يتذكرها، بريق عينها، دقات قلبها، وقفاتها وسكوتها رنين صوتها كلمات لسانها، ولمسة يديها. إنه متعب كأن جسده مغلفًا ومُحاصرًا بفقدانها. يدفعه الزمان للتحرك. نفسه تحاول الصراع ومنافسة هذا الحطام. حطام الفِراق والأسى عليها ليجد نفسه أنه قد عاد إلى السيد حماد "بائع السجاد".

السيد حماد:

– أين كنت يا زهير؟ لقد طال غيابك!

زهير:

– اعذرني.. فقد أخذتني هذه الاحتفالات سارحًا في بهاء الألوان وصدق الألحان إنها جميلة حقًا ليست كأي شيء قد رأيته قبلها. دعني أساعدك وأعطني بعضًا من السجاد لأشاركك في بيعه.

يحدد له حماد ثمن القطعة، وبالفعل يحمل زهير بعضًا لا بأس به من السجاد في هذه العربة الخشبية القديمة. يطوف في هذا الشارع الكبير، الذي أرهقه طوله، وأكسبه مالًا وفيرًا من بيعه عددًا كبيرًا منه. يعود زهير حاملًا ما تبقى من السجاد،وفي جعبته هذا المال الوفير الذي قد أسعد السيد حماد، حيث رأى فيه خيرًا كثيرًا يخبره:

– دمت طيبًا أمينًا يا زهير، ولك مما عملت رزقًا يعينك على سفرك غدًا دعنا نتناول هذا العشاء وبعدها اكتب لك رسالتك التي يجب أن تسلمها لجعفر البناء.

طعام شرقي قديم ببركة بيضاء، له رائحة ذكية لا ينفك أنفك عن الإعجاب به فيتناول كل منهما مما طاب له. بعد تناول طعام العشاء، يهم السيد حماد بكتابة تلك الرسالة على لفافة ورقية بحبر أسود وبخط قديم. ملفوفة بإحكام واهتمام عليها رباط من جلد حيوان،رائحتها كمسك طيب لم يُدركه زهير من قبل. يخبره حماد:

- احتفظ بها جيدًا لسفرك. إنك سوف تنام هنا حتى الصباح.

يودع السيد حماد زهير. ولكن قبلها، يعطيه ثيابًا جديدة تناسبه وبعض الطعام والشراب يغلق عليه دكانه، وينام زهير لوقت يشعر أنه ليل طويل. حتى يأتي بداية نور صباح الغد ومعه حماد يخبره أنه قد جاء الميعاد يقول له:

- عندما تدرك وتصل إلى "جعفر البناء"، ستعطى له الرسالة وأخبره بأن حمادًا بائع السجاد من الشارع الأعظم يرسل لك السلامات والخير في يد من يسلمها فقط أخبره بتلك الكلمات وستجده إن شاء الله مجيبًا ومعينًا لك فيما تطلبه.

زهير:

- سأفعل، دمت طيبًا خيرًا يا سيد حماد، ولن أنسى لك هذا الاهتمام وحسن الكلام،ولك عندي خير في قلبي ما دمت حيًّا،فلك وإليك السلام.

السيد حماد يعطي زهيرًا لفافة كبيرة من الطعام، وزادًا يؤويه ويُعينه على سفره وبعضًا من المال يُخبر مرشد القافلة بخصوص زهير، والتأكد من إيصاله إلى جعفر البناء. يودعه زهير وكلمات الخير منطوقة مسموعة بين

أهل القافلة التي تسير وتمر من أمام الدكان يذهب زهير في منتصف القافلة حيث السائرون على الأقدام بكثرة، تتراصف أرجلهم إلى الأمام، والنساء على جمال وأفيال كبيرة مقام على كل واحدًا منهم هودج من أقمشة مُزينة تعكس ضوء الشمس بستائرها ذات الألوان الذهبية والفضية البراقة، لتُظهر تلك الزخارف في إيقاعات لونية متباينة بين الألوان المنيرة والخافتة الماصة للنور.

***

القافلة إلى شاطئ البحر

القافلة تتحرك في منظومتها وسرعتها المنتظمة، وزهير ينظر إلى السيد حماد يجده ما زال واقفًا في مكانه يتابع مسيره. يقول زهير في نفسه:

- ما هذا الرجل الطيب! إنني لمحظوظ بلقائه في هذا الزمن الغريب.

يلوح زهير بيديه إلى السيد حماد، ويتابع المسير حتى يترك حماد هذا المشهد الصغير الذي ذهب بعيدًا في الأفق، مختفيًا هو وشارعه الأعظم.

نور الكون الأصفر في أوج اشتعاله، يذهب إلى البياض الحارق، وتمر الساعات مسرعَة حتى تشتد حرارة الشمس التي كان لهيبها يُغرق المسافرين في عرقهم، حتى تتوقف القافلة تمامًا للراحة في منطقة صخرية متباينة الارتفاع، فالرمال والحصى في كل الأركان يجلسون يرتشفون الماء. وزهير يتأمل هؤلاء المنهكين الذين يستزيدون من زادهم من طعام وشراب وزهير بالفعل يحذو حذوهم، يُخرج مما طاب له، يستمتع بهذا الطعام الذي سيعينه على سفره، فيأكل من الطعام ولكن بحرص وحذر لما تبقى من رحلته الطويلة، يدعو لهذا الرجل الطيب بالخير كان بجواره أحد المسافرين يسأله:

– كم تبقى لنا من الوقت لكي نصل إلى مدينة الإسكندرية؟

يبتسم المسافر له يعلم أنها أول مرة يسافر إلى مدينة الإسكندرية يخبره:

– إنها مسيرة أربعة إلى خمسة أيام، فاصبر إننا قد بدأنا للتو، إني أجدك على استعجال.

زهير:

– لا والله إنني لو تعلم لا أعير للزمن أي اهتمام فقط أتابع المسير حتى أجد الطريق، طريق الحقيقة أو الخلاص.

كان يمر الوقت وزهير قد بدأ يتأقلم مع واقعه الغريب وحياته الجديدة، إلا أن هذا الحديث مع المسافر، يعيد بذاكرته إلى هذا الممر "ممر الزمان" متعجبًا مما حدث يفكر في أصدقائه الذين تركهم خلفه هناك في هذا البيت وما سوف يحدث عندما يدركون اختفاءه. يأكل طعامه ببطء شديد يفكر في الممر وغرابته، ويسأل نفسه هل يمكن العودة إلى زماني؟ أيمكنني العبور لأعود لحياتي القديمة؟ ولكن كيف؟ إلى أين سأذهب وقد ذهبت حبيبتي عني. تركتني وحدي أصارع فراقها، وعمر السنين التي قضيناها سوية. فإلى أين الذهاب؟ ليجد نفسه تخاطبه تقول:

– يا زهير ليس لك في هذه الدنيا التي تركتها شيئًا بعدها، فقد عشت ما عشت وفرحت بما يكفيك، فأعطِ نفسَك فرصة في تلك الحياة وفي هذا الزمان لعل "ممر البيت" قدر للحقيقة ومُنقذ من حزن وواقع كان مميتًا،

فدع الأمور لحالها وساير الزمان وقدر المكان، لعلك تجد حقيقة تستحق البقاء.

قلبه يصارع هذا الأنين الخانق في كبت شديد، يشعر أنه على حافة الانهيار، حتى يحدث هذا الصراخ وهذا الفزع في القافلة لمجموعة من قطاع الطرق، تهجم وبشراسة على رأس القافلة، ليندفع زهير في غضب مكبوت حاله مُمسكًا بسيف أحد الحراس يقتل ما يقتل، وصليل السيوف في عظمة تتحدث عن غضبه على هؤلاء المجرمين قطاع الطرق. وهو في هياج شديد، كأنه جن جنونه عليهم ليخافوا هاربين دون رجعة زهير بين الشهيق والزفير الذي يبدأ في الانتظام، ويهدأ جسده الغاضب المخنوق حتى ينظر إلى ملابسه التي تلطخت بدماء قطاع الطرق وجثثهم المدماة الملقاة هنا وهناك حوله، ليدرك أنه الفاعل. متعجبًا من قدرته التي دحرت هؤلاء المجرمين.

جميع أفراد القافلة من كبير وصغير يشكروه على شهامته، معجبين بقوته التي فاقت الخيال لا يعلمون أن ما فعل هو هذا الحزن المسجون الذي انفجر فور رؤية هؤلاء كلٌّ أخذ نصيبه من غضبه ومن حماقته، ينهال عليه أهل القافلة بالهدايا وزهير شاكر ممتنع عن أخذ أي شيء سوى هذا الزي الجديد بدلًا من ثيابه المُدماة.

القافلة تبدأ في المسير سبع ساعات حركة متواصلة، وساعتان للراحة، حتى يأتي آخر اليوم والظلام يدفعهم للنوم والسكينة ليبدأ صباح يوم جديد. كان اليوم الأول لزهير صعبًا للغاية فقد شارك بقوة في إنقاذ هذه القافلة، فأصبح محبوبًا معروفًا بين أفرادها الذين صادقوه وعرفوه.

يمر اليوم الثاني، يليه اليوم الثالث، وزهير يهيم في سيره، يتأمل الأراضي الشاسعة التي يمر عليها، وهذه الطبيعة الخلابة التي لم يمسها الشر بعد. ينظر من بعيد ليرى فتاة كحبيبته فيجرى مهرولًا مسرعًا إليها، ويقترب ويقترب حتى يصل إليها، يجد أنها غير موجودة ينظر حوله كأنها قد تاهت بين جموع المسافرين إنه إرهاق الرحلة والتفكير فيها الذي دفعه للبكاء عائدًا لموقعه في قافلته، يعلم أن حزنه يسيطر عليه، وهذا الفقدان لن يتركه بهذه البساطة. فأمامه الكثير لكي يعاني.

مساء جميل واستدارة كاملة لهذا الفلك المنير، ونور القمر في عين زهير بدموعه البراقة التي غلبها النعاس، يستيقظ صباح يومه الأخير من رحلته إلى مدينة الإسكندرية. يُكمل هذا المسير حتى يستشعر بنسيم البحر الذي يمر بين ثنايا المسافرين. الابتسامات تنتشر على وجوههم بهذا الرحيق الجميل، يخبرهم باقتراب الوصول كلٌ إلى وجهته.

يستزيدون من حركتهم، وزهير ينتابه بعض القلق بخصوص وجهته، ذاهبًا إلى شيخ القافلة ليؤكد عليه وجهته،يندفع إلى قائد القافلة هذا الشيخ الكبير يقول:

- السلام عليكم أيها الشيخ الكريم، أريد أن أُذكّرك بكلمات السيد حماد إنني أريد أن أصل إلى الميناء عند جعفر البناء.

شيخ القافلة في محبة وإعجاب مما قد صنع من حماية قافلته من قطاع الطريق:

- أيها الشاب الحسن لك ما تسأل سأرافقك بنفسي إليه، وأنا مدين لك لشهامتك وحسن صحبتك. إنني أعرف السيد جعفر، فهو صانع ماهر ذائع الصيت هنا، ونعرفه جيدًا نحن التجار، ولقد اقتربنا فسِر بجواري حتى ندركه وأخبرك بوقت الذهاب.

يشكر زهير الشيخ قائد القافلة مستعدًّا وفي قلبه هذه الطمأنينة بوقت الذهاب، وتستمر القافلة في حركتها نحو رحيق البحر ونسيمه المعهود، يقتربون حتى يرى زهير هذا المشهد الذي اعتاده في زمنه القديم، ولكن يرى هذا المشهد العظيم أفق البحر في زرقته النقية كأنه يرى بحرًا لأول مرة. إنها طاهرة شفافة لم يصبها بعد التلوث تلوث زمنًا لأناس قد فاتهم هذا الميعاد، ميعاد الجمال وحسن الرؤى، بموانئهم التي أهملوها وأساؤوا استخدامها، فأكسبت شطآنها قبحًا وغمًا، وأفعالهم التي أحرقت هذا الجمال.

تتحرك القافلة بمحاذاة الشاطئ الطويل، حتى يمر زهير على قرية لا تبيع غير خير البحر، فألوان وألوان من الأسماك منها الفضية ومنها الذهبية، وأسماك كلوحات فنية في روعة تتحدث عن عظمة خالقها، وزهير مشدود لهذا الجمال الذي لا ينتهي ولم يره من قبل، فقد انقرض معظمها في زمن أهله. يرى هذه الخيرات، في زمن عجيب قد حظي به وحده دون حبيبته، يتمنى في خياله البائس وجودها معه، تستمتع وتشاركه رؤية هذه المشاهد الرائعة التي تبعث في القلب الحياة والمحبة.

رائحة الأسماك الطازجة تمتزج بنسيم البحر الهادئ، البيوت العطرة التي تقف في انتظام متجاورة، الشوارع الواسعة والحوارى بطرقاتها وأرضية صخورها السوداء المتلألئة اللامعة. تتحرك القافلة والأسواق تمر بجانبهم كأنها تتحرك للوراء، وزهير مشغول بما يراه كأنه مستمتعًا بحذر،يتأمل تلك المشاهد حتى يجد بعض بدايات هذه المراكب القديمة البناء، مرتكزة على اليابس حتى يسمع هدير الماء، فيعلم هو والجميع أن البحر قريب جدًّا هذا الهدير يبعث في نفوس المسافرين هذه الراحة الطيبة بعلمهم أنهم في المدينة الآن.

يناديه أمير القافلة وشيخها يخبره:

– هذا هو طريقك إلى جعفر البناء، فاسلك هذا الطريق إلى الأمام دون أي انحناء اسأل عنه وستجده غارقًا في عمله كعادته.

يودع زهير أمير القافلة ورفقائه في رحلته، يسير في هذا الشارع الطويل، إنه يُذكره بطريقة إلى مصنع الأخشاب الذي كان يعمل به في زمنه الذي فاته، ولكن الاختلاف هناك كبير هذا الخليط من الأعمدة اليونانية والفرعونية والأبنية القديمة المأهولة بسكانها، جداريات متناثرة متآكلة، عليها تلك القطع الصغير الملونة الرائعة التي تخطف الأنفاس، يستشعر بأن خيرًا هناك ينتظره. خطواته تقوده إلى الغوص في هذا الزمان البعيد، يفكر ببداية جديدة قد ترأف بحاله وتواسي حزنه المدفون.

قلبه ينبض متعلقًا بجمال هذه المشاهد، التي تمتزج مع حاضره الغريب، ليرى هذا البناء البعيد المنصوب على أعمدة كبيرة تعرف بالأعمدة

الأيونية، يجد هذه المراكب الكبيرة المُسندة على هذه القوائم والعوارض الخشبية الضخمة، بعضها قد أتم إنشاءها بالفعل، والآخر واضح أنه في عداد الإنشاء.

يرى زهير بعلمه وبخبرته في صناعة الأخشاب أنها مراكب بدائية الصنع، بسيطة التركيب لحد كبير، مما اندفعت الفكرة أمامه في هذا الزمن، ويجد شيئًا في أعماق نفسه عن كونه من هذا العالم البعيد. فقد تطورت فيه تلك الصناعات بشكل كبير، ولا مقارنة تقاس بينهما فيتأمل بإحكام مقدرته على الاستفادة بعلمه في هذا الزمن البسيط النقي.

يستمر في الحركة، يبحث ويتأمل الفكرة وينظر إلى هذه المراكب بمنظوره، بعين مئات الأعوام التي قد مرت على تلك التكنولوجيا البدائية. يعلم جيدًا أن باستطاعته فعل وصناعة أشياء بسيطة جدًّا، قد تجعله ملك من ملوك هذا الزمان. ولقد لاحظ أن أكثر المراكب تطورًا هي المراكب الشراعية، التي تسير بحركات الرياح ومعها ذات المجاديف لا آلة دافعة ولا تكنولوجيا متطورة في صناعتها.

علم أن صُنْعه لآلة ما تدفع تلك المراكب، سيكون شيئًا ذا شأن عظيم، ويبقى له قدر الزمان،ويفكر بعلمه المحدود في آلة بخارية دافعة تعمل بضغط الهواء الساخن، من خلال استخدام الوقود المتاح في هذا الزمن من الفحم، وبهذا يصنع شيئًا عظيمًا في منظور تلك الحياة البسيطة.

***

جعفر البناء

يأخذه الوقت في التفكير حول هذا الأمر حتى يطمئن من حاله ويستمر في الحركة للأمام حتى يسأل أحد العاملين:

- أتعرف السيد "جعفر البناء"؟

العامل:

- نعم.

زهير:

- أنا غريب عن هنا وأبحث عنه لأجل العمل، أتعلم أين هو الآن؟

العامل:

- نعم. أنا وكل هؤلاء الصناع يعملون عنده في صناعة المراكب، وهذه هي أرضه انظر هناك،أترى هذا الدكان الكبير؟ اذهب إليه وستجده هناك بإذن الله.

يشكر زهير الصانع، ويذهب إلى هذا الدكان، يتأمل هؤلاء الصناع يعملون في بناء هذا النظام القويم من الألواح الخشبية المتجاورة في دقة شديدة، فلا فراغ ولا مجال للخطأ صناع قدماء يرأسهم "جعفر البناء" الذي يرى هذا الرجل الغريب يسير بين صناعه يتأمل صنعهم.

يتقدم نحو زهير رجل قوى البنيان، شعره المُجعد، غليظ الأنف، أسود الوجه في ثياب منمقة، تظهر عليه ملامح الغنى والصيت الواسع يرى زهير هذا الرجل يقترب متجها نحوه، وهو في ثقة من أمره وفيما سيغدو، لا يُفكر في شيء سوى هذا الشعور الذي يخبره أنه سيصبح هذا العزيز عظيم الشأن بين البلدان يرى في نفسه أنه سيسمو إلى مكانة جليلة في هذه الأرض، واسمه سيعبر تلك الشطآن كملك عظيم يعلمه كل كائن كان.

جعفر البناء:

- أهلًا بك أيها الغريب أراك تبحث عن شيء.

زهير:

- أبحث عن السيد جعفر البناء.

جعفر البناء:

- إنني هو، أخبرني بما تريد.

زهير:

- إنني زهير، أرسلني إليك السيد حماد بائع السجاد من الشارع الأعظم بالقاهرة، لتدلني عن عمل عندك، وإني لعليم بصناعة الأخشاب والمراكب وستجدني إن شاء الله نافعًا.

جعفر البناء تتغير تعبيرات وجهه، يتبسم ويظهر عليه علامات الفرح والسعادة فور سماعه اسم السيد حماد. هذا الرجل من البين أنه ذو شأن طيب عنده، وله مكانة كبيرة ليست فقط عند جعفر بل عند الكثير من الناس. يقول:

– أهلًا بك يا زهير، وأهلًا بمن أرسلك إليّ، أخي وصديقي العالم الجليل حماد. والله إني لأحمل له في قلبي كل الخير، ولا أرد إليه أي طلب، ومن يرسله إليّ، فهو خير أكيد.

زهير:

– تفضل اعذرني هذه رسالة قد وصاني بإعطائها لك فور رؤيتك.

يُمسك جعفر البناء الرسالة باهتمام الرسالة:

سلام عليك يا بناء، سلام طيب من أخيك حماد بائع السجاد هذه رسالة من أرضى البعيدة، من قلب القاهرة. سيسلمك رسالتي رجل أرى فيه خيرًا كثيرًا وعمرًا مجيدًا له من الصفات أطيبها، وثق أن في يديه الخيرات ما أكثرها، فأعنه وكن له مجيبًا سامعًا، فإني أرى فيه رجلًا ذا شأن عظيمٍ،وسأراك عن قريب لأطمئن عليكما لك عندي السلام وطيب الكلام.

بعد أن قرأ السيد جعفر رسالة حماد يُخبر زهير:

– أتعلم يا زهير أن "السيد حماد" عالم كبير، كان له شأن عظيم، فلقد أعطانا من علمه ما أعطى منذ زمن بعيد علمني وعلم غيري بعض العلوم،

حق الكلام، صدق اللسان، حب الحياة، وتقديس العمل. إنه حكيم من حكماء هذا العصر، زاهدًا في دنياه، مكتفيًا بدكانه البسيط في صناعة السجاد لا يريد ملكًا أو جاهًا.

زهير:

– حقيقة إنه لرجل طيب، لم أرَ فيه سوى الخير.

جعفر البناء:

– لك ما تريد يا زهير، واسترح هذا اليوم فقط تجوّل وطوف بين الصناع، واختر ما هو العمل الأنسب لك،وستخبرني بما لديك صباح الغد بعد شروق الشمس.

يقدمه السيد جعفر إلى الصناع والعاملون في محبة مرحبين به وجه زهير الأسمر اللون يُعبر عن نور غريب أحاط ملامحه. إنه نور المعرفة التي يملكها من زمنه القديم. يسير معه جعفر إلى سكنه الذي سوف يكون:

– هذا سيكون سكنك يا زهير من الآن سأتركك تتعرف على المكان وأراك غدًا على خير.

زهير:

– أشكرك يا سيد جعفر.

يدخل زهير حجرته مرهقًا من سفر طويل، يريد أن يسترح على هذا السرير، ولكن فضوله يدفعه للتجوال للتعرف على هذه الصناعة، ودوره في هذا المكان. بالفعل يتحرك بينهم معجبًا بطريقة عملهم بهذه الأدوات

والأساليب القديمة في البناء، يرى هذا الاهتمام، الذي زين زمنهم، برغم مدى قدمهم وتأخرهم عن حضارته المتقدمة.

يجد تلك السفن الشراعية بكثرة على الشاطئ، وينتبه خاصة إلى هذه السفن الطويلة، ذات الأشرعة المتعددة بمجاديفها الملونة والمُزخرفة، كان منها من له صاريان، وآخر ثلاثة صوار، سفن كبيرة واسعة تستخدم في الإبحار لمسافات طويلة لنقل البضائع، وأخرى مدججة بالفوهات كأنها سفن حربية مُجهزة للمعارك كلها في عين زهير سفن بسيطة البناء ضعيفة البنيان.

لقد كانت فكرته تترسخ بعقله حول تطوير تلك السفن لشكل أقوى يُفكر في هذه العلوم القديمة التي تعلمها في زمنه السابق، وكيفية تطبيقها في هذا المكان.

يعود مُتعبًا إلى حجرته بعد ساعات من طوافه في المكان لينام وليمر هذا اليوم بصعوبة ليس كباقي الأيام، حتى يأتِي صباح الغد ذاهبًا إلى السيد جعفر البناء:

- إنني قد علمتُ مقصدي أريد العمل في بناء هياكل هذه السفن، وستجدني إن شاء الله عليما بما أصنع.

تمر الأيام والشهور، وسرعان ما تأقلم زهير وسط الصناع، يأخذ مكانته في وقت قصير، يبهرهم بعلمه وغرابة فكره وعقله الذي فاق حدودهم. فقد جذب انتباه كل ما حوله دون تعقيد، تنهال منه الأفكار

في البناء والتشكيل في بدن تلك السفن، التي سرعان ما أخذت في شهرتها على يديه.

يبتكر تلك الهياكل الإنشائية الكبيرة والصغيرة، وجعفر البناء في ذهول لأمر هذا الرجل، ويديه اللتين تصنعان أشياء بعيدة كل البعد عن قدراتهم. فيذيع صيت زهير بين الصناع وتجار السفن والمراكب، فاسمه أصبح موثقًا بهذه السفن التي يصنعها. سفن تطوف بين أرجاء الأرض في بحرها العظيم، تخبر أهلها باسم صانعها فأصبح اسمه كعلامة تجارية موثقة في صناعة هذه السفن البديعة الصنع قوية البنيان.

زمنه قد أعطاه المعرفة والعلم الذي يستطيع به أن يملك الكثير والكثير، لكنه لم يطمع، بل يُفكر في هذا التدرج البسيط غير متلهف لهذه العظمة التي تنتظره، فلا محالة من ذلك كان هذا التطور السريع لزهير كان له أثره الكبير على علاقته مع السيد جعفر وغيره ممن كبار أهل البلاد، وأصبحا صديقين وشريكين في هذا الصرح الكبير من صناعة السفن.

دائمًا يتذكر جعفر كلما رآه رسالة السيد حماد، الذي رأى فيه خيرًا كثيرًا، وبالفعل يرى جعفر فيه كلماته التي تتحقق نُصب عينيه، بل أكثر من ذلك، فيرى فيه دائمًا العالم العارف بأمور الدنيا يصعقه بعلمه، وأفكاره التي لا نهاية لها.

***

زهير والمعز لدين الله الفاطمي

يستمر رتم الزمان على هذا الحال وزهير ذو شأن عظيم، يصل اسمه إلى حاكم البلاد فكان المعز لدين الله الفاطمي هو الآمر الناهي والذي في يده مقاليد السلطة والحكم. أول الخلفاء الفاطميين في مصر، وسرعان ما عرف بأمر زهير هذا العالم الكبير، والصانع الماهر ذو الفكر الذي لا يضاهيه أحد في هذا الزمان، وكان المعز مولعًا بالعلوم والأدب، يحظى باحترام الجميع وتقديرهم، يجذب إليه غرباء العقول الفاهمون العالمون، ويضمهم إلى صفه، ليستزيد من علمهم لتسيير أمور البلاد، ولكن زهير ليس كأي عالم كان.

يسير زهير على شاطئ البحر، والأمواج مشتدة في أوج قوتها، تتلاطم على صخورها الندية الخضراء، وصفير الأمواج بين ثنايا الصخور، تعزف كالناي الحزين،تخرج هذه الزفرات كأنها الأنين، يتأمل زهير صُنعه، وعظمة ما فعله لهذا الزمن، مكانة كبيرة في زمن بعيد، يفكر في ماضيه وحاضره تأخذه قدماه إلى البعيد، فيبتعد كثيرًا عن موقع السفن إلى شاطئ ناءٍ مهجور، مُمتلئ بصخور زلقة ذات حواف مسننة، يرى هذا الكوخ القديم على هذا الشاطئ كأنه كان بيت لصياد عجوز هجره منذ زمن طويل.

فضولًا منه كعادته يدخل هذا الكوخ محاولا العبث مع وقته الذي يمر ببطء، يشعر بهذا الدفء، ويتأمل محتويات المكان، يجد هذا الكرسي القديم، بجوار نافذة زجاجية، يجلس على هذا التراب غير مبالٍ، ينظر إلى هذه النافذة التي تمرر أشعة الشمس بقوة لتقتل ظلام هذه الحجرة المظلمة. البياض ينفذ إلى الأرضية الخشبية الرطبة،يتأمل هذا التباين والتنافر الشديد بين النور والظلام سارحًا فيها ودموعه تتسرب من عينيه دون توقف يتذكر هذه الحبيبة التي تركته هنا يجلس وحده في أحزانه.

صمت..طنين في أذنه، وأصوات أرجل صغيرة تتحرك متخفية في المكان بغرابة، تذكره بعنكبوته الأبيض، أصوات لأوتار خيوطه المشدودة تتحرك. زهير تنتابه نفس القشعريرة القديمة، التي تصيبه بتلك الإثارة بالحكة في يديه وعنقه يشعر بشيء يتحرك أسفل جلده، فيُزيد من هذه الحكة، يحاول انتزاع هذا الشعور من جسده حتى تلتهب يديه ليهم واقفًا يلتفت حوله في جميع أركان الحجرة، ولا شيء هناك، لا عنكبوت، ولا خيوط، لكن هذا الشعور المُنفِّر، ما زال على سطح جلده يضايقه يُزيد من خدشه، حتى يكاد يقتلع جلده ليتوقف تمامًا هذا الشعور المؤلم الذي يدفعه للخروج من هذا المكان بالرغم من رغبته في البقاء، يتحرك ليترك المكان وينظر خلفه، يجد فتاة خلف النافذة تنظر إليه، فيجرى مسرعًا خارج الكوخ نحوها، يريد أن يرى من هي تلك الفتاة. لكن لا شيء موجود فيشعر زهير بهذه الغرابة والخوف الذي تمكن منه وقتها.

العنكبوت 3

ما هذا؟آآآآآآآه إنه الطنين في عقلي. يدفعني للصراخ، للغناء، للشتم والنباح تبًّا لكم! أنتم لا تفهمون. إنني في أمس الحاجة إليها. زوايا عقلي تضيق. مخيلتي تنفجر مرارًا وتكرارا. لم يتبقَّ منه شيء. فأنا لا شيء، أنا العدم الأكيد هذا العقل يموت، يُعذبني يجب أن يقتل تبًّا له! إنه أشبه بالعنكبوت كلما أفكر أتعذب كثيرًا لا لن أكون فريسة تأكل لنظرات الشياطين لهمهمات الحاقدون أفضل أن أكون لشيء لن يكون،على جزيرة مهجورة لا أرى فيها هذه المفاهيم. إنني غبار أطير. هناك أعيش في ظلام خلف هذا الباب، أسكن هذه الحجرة الضيقة عند الأركان أنتم تكرهونني نعم. أنتم تحبونني، تبًّا لكم!



يهم زهير عائدًا، يفكر فقط في هذه الفتاة التي كانت تنظر إليه من خلف النافذة، يتمنى أن يعلم من هي، ولما اختفت فجأة، حتى يصل إلى بيته الواقع وسط أرض صناعة السفن، يتفاجأ بهذا الوفد المهيب وعلى رأسهم رسول ذو مكانة جليلة، في ثياب جميل من حاكم مصر المعز:

– بعد التعظيم والتوقير إنني رسول من حاكم مصر "المعز لدين الله" يُرسل لك أطيب السلامات وكل الخيرات يريدك أن تذهب إليه في الحال.

زهير:

– إنه لشرف عظيم وإني لمجيب دعوته.

زهير في غرابة شديدة، يغلبها اليقين بما كان يشعر به من مكانة عظيمة، يتلقى هذا الخبر سعيدًا قائلًا لنفسه بلهجته القديمة:

– غريب! ما الذي وصلت إليه يا زهير؟! ما هذا الزمن العجيب؟! لقد أصبحت فيه شخص جديد لي شأن عظيم، ومكانة معلومة. كنت أظن أنني قد همت في البعيد. إلى لا شيء وإنتيت. لم أكن أتصور أن أصل إلى هذا المكان. أهذا شرٌّ أم خير؟ خائفٌ.. فماذا بعد كل هذا؟ ما الذي يمكن أن يحدث أيضًا؟ لا أعلم. أأبكي؟ أم أفرح؟

لقد علم زهير وتأكد بعد لقاء هذا الرسول، أن اسمه وعلمه قد وصل بالفعل إلى الحاكم، الذي يريده في أمر مهم، وأنها بداية لشيء كبير يستجيب بسرعة إلى رسالة الحاكم ويذهب في موكب كبير، في زمن بعيد عائدًا إلى القاهرة، يتذكر هذا الإنسان الذي فات زمانه من ممر طويل، ممر

غريب، قذفه إلى أعماق الزمان، إلى دنيا من المحال تبلغ الجبال من هذا الجمال لكنه يفكر ويفكر في حبيبته زوجته هاجر، التي فاتها مشاركته هذا الزمان، وهذه العظمة، فاتها حياة رغيدة تنقصها روحها وقلبها الحاني على رجل غريب قد وصل إلى العلا، لكن بعد فوات الأوان. فقد ذهبت إلى الرفات دون عودة ولا رجعة إنسان وحيد يفتقدها قلبه وعقله وجسده دون حبها.

طريقه طويل ممدود، يهيم فيها وما قد فاته معها، حتى يصل إلى قصر المعز لدين الله الفاطمي في قلب القاهرة العظيمة. يجد هذا الاستقبال الذي لم يرَ كمثله مثيل يخرج من موكبه، يتقدم داخل القصر، ليجد هذه الأرض الشاسعة التي تكسوها وريقات الأزهار الممتزجة ألوانها مع ألوان هذا الرخام ذو العروق الفضية والذهبية العاكسة نوافير تتلألأ مياهها في أوجه العابرين، تحيطها هذه القطع الصخرية الصغيرة الملونة والممتدة إلى جدران وأسوار القصر. أعمدة خشبية مرصعة بالعاج يسير بين هذا الجمال، يحاول إدراك هذا الصرح القويم من حسن البناء وروعة الاستقبال مبتسمًا يتحرك في موكبه، يسلم على أناس من أهل القصر، ورجال الدولة مزينون بهذه الأزياء البراقة، حتى يرى هذا الرجل المهيب ذو الشأن العظيم، يتقدم نحوه في اهتمام، فيعلم أنه هوه المعز لدين الله بنفسه.

زهير في هذه اللحظات القصيرة متعجب من أمره، يسأل نفسه: لَمَ أنا من بين أهل هذا الزمان؟ لَمَ قد كتب لي أن أعبر هذا الممر الغريب، وأصل إلى أبعد مكان قد يتخيله أحد؟ إنه سِري وحدي الذي سأدفنه بداخلي في أعماق عقلي ولا أحد سيعلم بشيء عنه.

المعز لدين الله:

- السلام عليكم أهلًا بك يا زهير، لقد كنت في انتظارك ومتشوقًا إلى رؤيتك.

زهير يمد يديه يسلم عليه في اهتمام وحرص لهذا المقام:

- وعليك السلام يا صاحب البلاد دمت خيرًا طيبًا ولك مني كل الإجلال والتقدير، وإنه لشرف عظيم لي أن ألقاك.

تتحرك أقدامهم في أرجاء المكان وزهير بتأمل حركته إلى الأمام إنها خطوات الحياة والأمل في عالم مجيد، إلى زمن منير حتى يدخل الاثنان هذه الحجرة الكبيرة. تحيطها أعمدة حلزونية ذهبية، تكسوا جدران هذا المكان، وتمتد تيجانها إلى الأعلى،تصنع تلك المنحنيات من الزخارف النباتية الممتدة حتى الجدران، كأنها تحمل سقف هذا القصر الشاهق جدران من أخشاب محفورة ومنقوشة برسوم قديمة تزين الأركان، وتماثيل فرعونية قديمة لملوك مصر منذ قديم الزمان.

يستقران على هذه الكراسي المبهرجة متقابلان يتحدثان حسن الكلام. يخبر زهير المعز لدين الله:

- إن هذا لفخر ومكانة عظيمة لي، وسعادة لا توصف لاستقبالك أيها الكريم، ولك مِنى ما شئت فستجدني في الخير مُقيمًا، فاعلًا مديمًا لي في العلم ما لي، أخدمك به وأنفع من حولي. فهذا مصيري وإليه مجيب، حاضر لا أغيب.

المعز لدين الله:

- أحسنت قولًا يا زهير لقد علمت ما علمت عن عظمة وقوة هذه السفن التي تصنعها، وأريد منك أن تشاركني في صنع أسطول قوي نحمي به بلادنا، ويكون لنا قوة يحترمها جيراننا من البلدان. ضع يدك في يدي، وإني لجاعل منك وزيرًا لي، له دور مهم في إدارة شؤون البلاد، وستكون لك عظمة المكانة والملك كبير.

يرد زهير بهذه الكلمات التي طالما شعر بها في هذا الزمان:

- الملك لله والمقدرة والعزة له،وإني لمجيب لطلبك سأخبرك بشيء عظيم سيغير أوضاع البلاد وسنصنع أسطولًا قويًا لا يضاهيه أسطول من هذا الزمان.

يعرض عليه زهير مخطوطاته التي صممها ورسمها لوقت كهذا، يحاول شرح ووصف ما فيها، والمعز في غرابة شديدة لعقله وفكره. أهمها مخطوط لآلة دافعة غريبة الشكل، تدفع هذه السفن بقوة فيُغير مفهوم صناعة السفن بأشكالها وأنواعها تمامًا، وليبني بذلك حضارة متطورة، يوسع فيها آفاق التحكم والمقدرة على السرعة التي ستغير بدورها هذه البلاد.

يقول زهير:

- هذه الآلات لن تكون قاصرة فقط في صناعة السفن، فقد نصنع بها بناء قوي لحياة وحضارة جديدة.

يتأمل المعز لهذا المخطوط الكبير يحاول الفهم، يرى هذه الآلة التي تظهر كعجلة تدار بهذه الغازات أو البخار الناتج عن إحتراق مواد مشتعلة. يتعجب لما يراه وبما يسمع، يخبر زهير:

- إن استطعنا صنع تلك الآلة حقًا سننشئ لنا مجدًا ستشهد له البلِدان فلك مني ما أملك وما تأمر به.

زهير:

- إني أحتاج لإمكانات كبيرة لبناء هذا الصرح الذي سيصنع منها تلك الآلات دع لي ذلك، وسأجمع أفضل الصناع على رأسهم جعفر البناء وسنبدأ فور إنتائنا من البناء.

تمر الأيام وزهير يبني هذا الصرح الكبير، يجمع الصناع ومعه جعفر البناء في صحبة السيد حماد، الذي سرعان ما استعان به زهير هذا الرجل الذي أرشده وأحسن ضيافته، فهو أول من رأى فيه الخير، والأجدر بأن يكون بالقرب منه، ومعاونته في إدارة تلك الشؤون.

إخوة أقوياء يُذَكِّرونه دائمًا بصحبته في زمنه القديم، يتعاونون لصناعة منشأة عظيمة، بنيانها قوى، تصنع تلك الآلات القاسية السريعة التي سرعان أن دخلت في بناء أقوى أسطول بحري عرفته كل البلدان المجاورة، ووضعتهم في مقدمة البلاد، وزهير لا يمل من أفكاره، كعالم يهيم في فضاء هذا الزمان، يراه الناس حقيقة كإنسان قد سبق هذا الزمان، وبالفعل إنها حقيقة كينونته الغريبة التي لا يعلم عنها أحد منهم.

هنا وهناك، ويستمر رتم الزمان، والوقت يمر مسرعًا إلى الأمام، لا رجعة ولا نظرة للخلف لكن عذابه صاحبه، وحزنه لا يفارق جسده، وذِكراها لا ينتهي. يراها في كل مخرج ومدخل، في كل فعل يقوم به، غير قادر على نسيانها أحيانا تسول له نفسه التي تقول إنها قد إنتهت، تعذبك، فانسَها، ولكن يرد قائلًا: كيف؟ إن كوابيسه لا تنتهي من هذا العنكبوت الأبيض، متفرع الأطراف مخيف الشكل، يطارده في أحلامه وواقعه، ينشر خيوطه، ليستيقظ مفزوعًا يخدش جسده حتى يكاد يقتلع جلده لقد أصبحت كوابيسه كعادة طبيعية يتعايش معها لا يحاول مداواتها لأنها تذكره دائمًا بها.

***

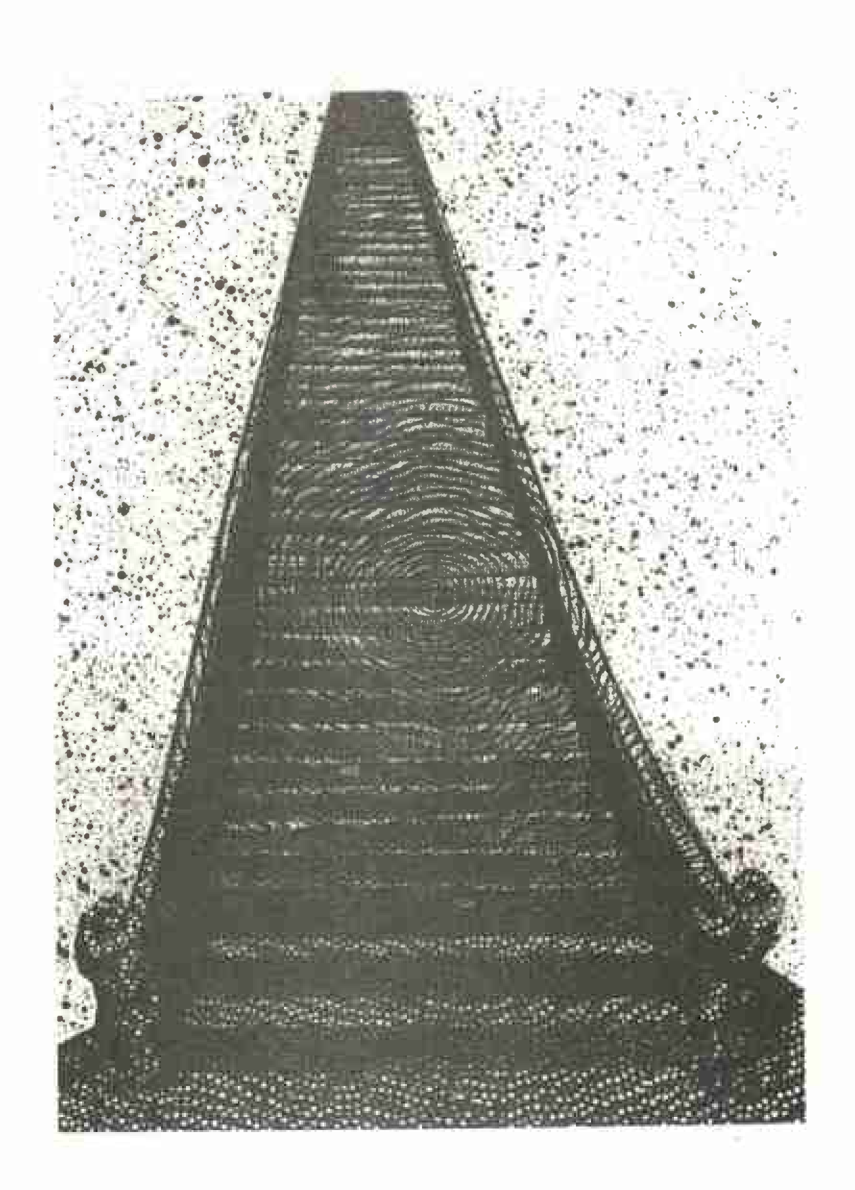
العودة إلى "ممر الزمن".

في قصره يهيم بين الجنبات، والخير وألوان المتاع معقود به، حوله من أناس هائمين ساهرون على راحته في هيبة من مكإنت ومن عظمة فكره يسير بينهم كملك كبير يشع نورًا من جبهته، إنه نور العلم والمكانة الرفيعة التي قد وصل إليها. لكن سجنه في أعماقه وممر الزمان، ممر البيت ما زال يطارده، يُحدثه، يخبره، ويهمس في أذنه، يذكره بما فاته من حب كبير لا يمكن استبداله بهذا الزمن والمكانة العظيمة يندفع متخفيًا بين الناس، تاركًا قصره ومُلكه الكبير ومكإنت الرفيعة، يسير تحت هذا الستار من القماش البالي، بين الجنبات وجدران القصور، ليذهب إلى بداية هذا الشارع الكبير شارع البيت "بيت الخولي وممره الزمنى العجيب".

يسير بخطوات متثقلة بطيئة، والدمع في القلب ينزف، تواسيه دموع عينيه التي أغرقت صدره حزنًا عليها، على فراقها، فراق المحبة وعمر السنين لا يشعر بجسده الهائم بين الطرقات والأزقة، ينظر إلى وجوه الناس، يشعر بأن عيونهم تلاحقه، يبتسمون له في غرابة منهم كأنهم يضحكون

على حاله، نفسه القديمة تدفعه وتوسوس له بالذهاب هناك، لعل الخالق يُحدِث له أمرًا.

يندفع زهير ويقف أمام البيت، ينظر إليه في الظلام الذي أغرق المكان دون هذه المِشكاة القديمة المُعلقة على أحد الجدران، يندفع نورها إلى هذا البيت الذي يتجلى أمامه رويدًا رويدًا، ينظر إلى بوابة البيت، يفكر في الدخول، يتذكر أصدقائه القدامى، الذين كانوا في صحبته فور دخوله هذا المكان، ويترك عباءته البالية على بوابة البيت يتقدم إلى الأمام أنه نفس البيت، مازال على حالته حتى الآن، يستمر في الحركة والبحث عن هذا الممر، يعلم جيدًا بخطورة ما يفعل، ورعشة يديه لا تفارقه غير مبالٍ لها حتى يجد هذه السلالم النحاسية المتجهة إلى أعلى،والغارقة في أعماق الظلام..

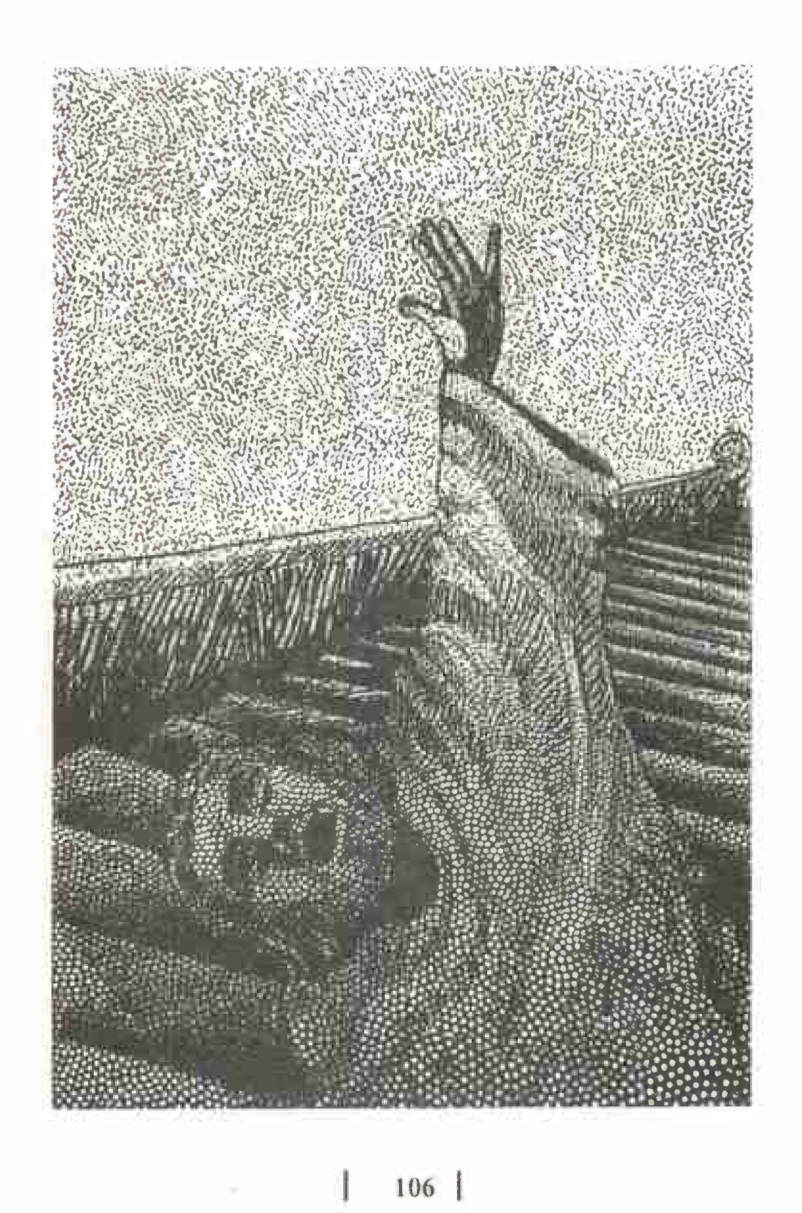


يديه ممسكة بسور السلم البارد ليهم في الصعود على درجاته التي لا تنتهي،يستشعر بغرابة الارتفاع كأنه بيت من ألف طابق،يستمر في الصعود وعينيه يزداد بريقهما في ظلام البيت، ونار تحرق صدره من الإرهاق والتعب يلتفت في توتر حوله، ليجد فقط هذا الأسود القاتم الذي أحاطه من كل جانب، لا يملك غير سور السلم الذي يرشده إلى الأعلى. يُهَيئ له تلك الأشياء التي تتحرك من حوله، لكنه غير مبالٍ بذلك سوى إيجاده هذا الباب.

يزداد التوتر من طول هذا السلم الغريب، يصعد ويصعد والصمت صديق، وبرودة المكان تشتد حتى يصل بالفعل إلى أول هذا الرواق ذي السبعة أبواب، بينهم هذا الباب وظلامه الذي يُنير الطريق، يتقدم مسرعًا نحوه يمسك بمقبض الباب السفلى في انحناء، يسمع هذا الصراخ المكتوم، وصوت مخيف كطنطنة الأوتار التي اخترقت أذنيه، وحطمت سكون المكان، وزادته صمتًا عما كان، وأصبح العدم شيئًا أكيد، واختفت ملامح جسده فلم يرَ نفسه ولا شيء غير هذا المقبض، الذي ما زال ممسكًا به، والخوف يسيطر عليه لا يعلم، أيفتح الباب أم لا تصارعه ونفسه، تناقض نفسها تقول:

– افتح الباب، افتح الباب، وتكرر وتكرر، اذهب إلى هذا الزمان، لا لا!!!!!!! ابقَ مكانك لا تترك المكان فأنت ملكًا عزيز وعالم جليل لا!!!!!!!!.

في قلب هذا الصُّراخ والفزع العنيد، يرى أن وباءً خبيثًا يزحف داخل نفسه، فيمرض وينهار تمامًا على الأرض، يسقط على وجهه ليغيب عن الوعي يتقلب بجسده يحلم أحلامًا غير مفهومة متقطعة متناقضة، ويستيقظ من إغمائه، يكاد يتحرك.



المسكين يحاول إخراج نفسه من هذا المكان، زاحفًا إلى آخر الرواق، يتحرك إلى الأسفل ليس على قدميه، ولكن يسحب نفسه تدريجيًّا، يتلطم بين درجات السلالم إلى الأسفل، ونور الصباح يكاد يدخل بين ثنايا البيت يتأمل هذا الزمن وهذا الانكسار من فِراق قد قسمه وحطم فؤاده، كأنه غارقًا في بحر الحيارى، يحاول تذكر وجهها، يتذكر هذا الشعور القديم بها بملمس جلدها، حركات عينها،همساتها، ألوانها،يخاف أن ينسى هذا الشعور في هذا المكان البعيد.

تائهًا واليأس يقتله بين زحام الماضي وحاضره العجيب، كأن الأحزان تعانقه من كل جانب وتضمه بشدة، تكاد تُكسر ضلوعه يتحرك مترنحًا هنا وهناك كمن يصيبهم الهذيان، كسكير مجنون يتخبط بين الجدران، حتى يصل إلى باب البيت لا يعلم كيف، ليرى بداية صباح جديد، ولكن كأنه مر عليه أيام وأيام في هذا المكان، يلتقط عباءته يرتديها مسرعًا عائدًا يتحسس الجدران، ويتعلق بها لترشده إلى قصره، يسقط أمام بوابة قصره لا قدرة على الكلام، تبعثره رياح الطريق وصقيع الشتاء، يحاول الوصول حتى يدفعه حراس القصر ظنًّا من أنه رجل غريب، حتى يُصعَقوا ليجدوا أنه آمر البلاد. فيدخل قصره والأطباء حوله مجتمعون لمداواته.

لقد طال غيابه عن الوعي، حتى يستفيق في إحدى الليالي يصرخ لهذا الفراغ المحيط، يظن أنه ما زال مُلقى هناك في بيت السيد الخولي، ليجد نفسه مُستلقيًا على فراشه وحوله الخدم والأطباء، ويهم زهير من مكانه ليقف ثابتًا والكل سعيد بعودة عافيته، فرحين بهذا العالم الجليل.

لا يريد الكلام ولا نطق اللسان، وكل من حاول الحديث معه يصده إنه ما زال هائمًا بين ثنايا نفسه العليلة. يعلم في قرارة نفسه أن قلبه ما زال هناك معها، في عالمه القديم،مع أصحابه المقربين يسأل نفسه: أيمكنك العودة؟ وكيف بدونها؟ بدون رحيق طلتها، بدون روحها.

ويستمر الحال وتمر الأيام، تاركًا أمور البلاد لصديقيه السيد حماد وجعفر البناء يهيم بين الجنبات، يسافر ويرتحل هنا وهناك يخلو بنفسه مع ذكرها كأنه يتعبد في المحراب حتى ينفر من المكان، ليهيم إلى تلك الأراضي الشاسعة بين الغابات الكثيفة بالأيام. يخلو بحزنه معها والورود والنباتات والأشجار يرى فيها لون عينها كبريق أبيض يشع بنوره بين الأغصان، تنظر إليه تناديه وتواسي وحدته، لينام سارحًا غير عليم بما يمر من زمان.

زهير يستفق في هذه الليلة يعلم أنه إن لم يكف عن هذا الأنين فهو إلى الجنون ذاهبًا لا محالة يعلم في قرارة نفسه أنه تائه عن طريقه بعدها. يفكر في الترحال والسفر بين البلدان، وما المانع من ذلك؟ فليأخذ الوقت مجراه، ويُعطي نفسه فرصة مداواة عذابه، بانشغاله بأسفاره ورحلاته الطويلة. ويذهب بالفعل ويرى أشياء وأماكن لم يدركها قط، يطوف بين البلدان، يشتاق إلى أحد يشبهها يبحث عن شيء غير موجود وعمر ليس له، كأنه يسير في بحار لا شطآن لها، وأشجار لا نهاية لها إنه يعبث في الطريق يظن أنه بذلك سوف ينساها، ولكن كل محاولاته تقربه من ذكراها أكثر فأكثر.

كان المعز لدين الله الفاطمي في بلاد المغرب يراعي أرضه وملكه، حتى يصل إليه خبر زهير وحالته التي ساءت كثيرًا، ليعود ليطمئن على هذا

الأمين الطيب وصديقه العزيز حتى يصل إلى البلاد ليعلم بغيابه الطويل وأنه قد ترك شؤون البلاد لحماد وجعفر،مما أغضبه ذلك كثيرًا باعثًا إليه بسرعة العودة إلى البلاد.

بالفعل يعود زهير إلى القاهرة إلى قصر المعز الذي كان في انتظاره فرحًا سعيدًا بعودته، وفي قلبه بعض من العتاب له. يسأله:

- أين كنت يا زهير؟

زهير متعبًا من الطريق عليه علامات الاكتئاب الشديد:

- لقد مسني الحزن والأسى على عزيز لي، فارقته منذ زمن بعيد لا تعلمه أنت أيها الكريم. لقد ضللت الطريق ظنًا مني، بأني سوف أكون سعيد لكن لا أقدر على نسيان هذا الشعور، فما زالت أيامي القديمة تطاردني، تريد مني الرجوع والعودة. لكن لا أعلم كيف؟

يسأله المعز لدين الله يقول:

- لطالما ظننت أن لديك سرًّا دفينًا أخبرني بأمرك يا زهير، فمقامك عندي كبير، وأمرك يهمني كثيرًا لعلي أستطيع مساعدتك في ما تبحث.

زهير:

- إنه شيء قديم لا أقدر البوح به، وحتى لو علمت لن تستطيع إدراك ما حدث لي. حقيقة أخاف عليك أن تضيع كما ضعت أنا، وأنصحك بأن لا تحاول معرفته لأنه قد يكون شرًّا كبيرًا للآخرين.

يحاول المعز مرارًا وتكرارًا معرفة هذا السر وأمر زهير لكن يجده متحفظًا تمامًا لا أمل في إخباره أي شيء يحترم المعز هذا الكتمان تاركًا إياه يقول له:

- إنني منتظرك لتنظيم شؤون البلاد فلا أفضل منك في ذلك وإنني في انتظارك يا زهير.

زهير:

- كلي شوق لذلك، ولكن دع لي بضعة من الأيام لأستعيد عافيتي من جديد وستجدني معك عن قريب.

يتركه المعز قلقًا على حاله الذي لا يُطمئن، ويظل زهير على حاله بعيدًا عن حكم البلاد، يهيم في قصره الكبير حتى يأتي هذا اليوم القمري المنير.. فالقمر بدرًا ومكتمل ينير الليل كشمس الصباح في بداية اليوم يصعد إلى أعلى قصره يتذكر قبلتها الوردية الحمراء، يتذكر همساتها التي تخبره بعدم التأخر، يتحدث إلى نفسه كشاعر أحمق، يعزف بصوته المنبوح أنين الفراق، يغني لها ويدندن لأيامها وفراقها، فراق المحبة وعمر السنين. ينظر من أعلى قصره يتمنى لو أن أحد قذفه رغمًا عنه لتنتهي معاناته ولكن إيمانه بالله يمنعه ويصده. يقضي وقته في حمق يعد البيوت والشوارع المتقاطعة، حتى يرى من بعيد هذا الشارع الأعظم، وبجواره شارع البيت "بيت السيد الخولي"، ونورًا من بعيد يخبره ويناديه بالذهاب هناك، وأن هذا هو الميعاد، ميعاد الذهاب وترك كل ما فات.

بداخله شيء يُخبره، وينجح في إقناعه بنهاية وجوده في هذا الزمان. لكن قبل ذلك يجب أن يفعل شيء مهم، ليذهب إلى المعز يخبره بأشياء لم يسمع عنها قط، إنها من زمن غريب، زمن قادمًا ولكنه بعيد، يقول له:

- أمامك عقودًا وعقودًا طويلة حتى تراها إنه زماني الذي أتيت منه. وإني سأخبرك كل ما أعلم من علم دون بوابة العبور، فهي سري ومصيبتي وحدي، وإني لأخاف أن يمسّك شرها.

المعز في غرابة مما يسمع، في شغف متعطشًا لمعرفة المزيد مُتعجبًا لهذا الإنسان الغريب يخبره زهير ويجعله يُدون هذه المعرفة قدر ما استطاع حتى يودعه ويُخبره أنه وقت الذهاب يقول له:

- والله إني سأشتاق إليك كثيرًا، لكن حان وقت ذهابي بلغ سلامي وحبي الشديد إلى السيد حماد وجعفر البناء لأني لن أقدر على وداعهما. وأحلفك بالله ألّا تتبع خطواتي لأن فيها حقيقة لخطر كبير.

يترك زهير كل شيء خلفه، ويذهب بعيدًا يتابع الطريق حوله ليتأكد أن لا أحد هناك يتبعه يسير خالي الوفاض ليس معه أي شيء سوى هذا الكتاب الذي كان يُسجل فيه أموره وأفكاره الخاصة، غير طامعًا في شيء سوى حقيقة تريح قلبه، ويستمر في حركته يُفكر في السيد حماد هذا العالم الطيب الذي أحسن إليه، وهو أول من استقبله ليغير طريقه، لا يريد ترك هذا الزمان دون رؤيته ووداعه.

يذهب إلى بيته ليتفاجأ به حماد يرى أن هناك خطبًا ما، يقول:

- تفضل يا زهير، أتمنى أن تكون بخير، فالوقت متأخر من الليل، وإني أخاف عليك من قطاع الطريق.

السيد حماد يستمع لكلماته دون مقاطعة وفي حِكمة يعلم أن وراءه هذا السر الدفين، يقول زهير:

- إنه الوداع يا سيد حماد فلا تحزن، فأنا أبحث عن حقيقة نفسي التي تركتها وتركتني، إنني أبحث عن ذاتي، وعن السكينة بداخلي، فادعُ لي أن أجدها فقلبي قد أحرقه فِراق عزيز.

يتأمله السيد حماد كأنه يراه لأول مرة،ويعلم تمامًا أن زهيرًا يعي ويقصد ما يقوله يرى هذه المعاني الخفية وراء كلماته، والتي لا تريد الإفصاح عن سره فلا يسأله ولا يستفسر عمًّا يقوله يرى في عينه بريق الألم. الألم شيء يكاد يقتله. فيحتضنه حماد بقوة حتى يودعه ويتركه لحاله يذهب في طريقة. يناديه بصوت خافت كأنه يتحدث إلى نفسه، وفي عينيه صورة زهير التي تبتعد عن باب بيته:

- إلى الأمان يا زهير، إلى الحقيقة التي تبحث عنها، إلى المحبة التي تاهت عنك، إلى زمانك الذي لا أعلم عنه شيئًا.

سماء تملؤها الغيوم، والقمر في غِياب، والنجوم البعيدة تقترب في الظلام بين جنبات السحاب، تنير عيون الناس، عيون الحالمين، وزهير مُتجه إلى وجهته، يسير متخفيًا في ردائه، ذاهبًا إلى الطريق الذي يؤدي إلى الشارع الأعظم. حتى يكاد يصل إلى البيت، يجد بعض الأشخاص غريبي الأطوار

يتبعونه، فيجري خائفًا منهم مبتعدًا عن البيت خيفة معرفتهم وجهته، لكن سرعان ما أمسكوا به إنهم من قطاع الطرق الذي قتل بعضهم في رحلته الأولى إلى الميناء. غاضبين يضربونه، يريدون أن يقتصوا منه ويذبحوه. يظن أن أمره قد انتهى، وأن ساعته قد حانت ليستسلم تمامًا لهم.

لقد كادوا يذبحونه بالفعل، ليهجم عليهم بعض حراس الشوارع ليفروا هاربين، ويتنفس زهير الصعداء، يقف بصعوبة يحاول الإسراع بالذهاب إلى البيت. يعلم أنهم قد هربوا جميعًا ولا أحد خلفه بعد الآن.

***

ممر بيت السيد الخولي

خطوات تتبعها أصوات قدميه المسرعة في طريق من أحجار ندية سوداء، تلمع تحت ضوء القمر المستدير يأمل في العبور ليعود لزمنه القديم. ينظر إلى السماء والغيوم بدأت في الرحيل، والنجوم تهيمن على الفضاء كأنها خرجت من سجنها توًّا، لتصاحب القمر، ليشهدوا على زهير أنه راحل تارك هذا الزمان.

القلب حيران من نهاية الطريق، يُريد أن يُبصر أملًا هناك حتى يتوقف عند الباب باب بيت الخولي. ينظر إليه لا يُعير لما فات أي اهتمام غير عبوره لمر الزمان فيدخل البيت على استحياء خائفًا من صمت المكان، وما حدث له عند الرواق. يصل إلى هذه السلالم ولكنها ليست غارقة في الظلام، إنها مرتفعة ومتناقضة الألوان كأن ألوان الحياة متمثلة في قطع خزفية زخرفية صغيرة، تجمعت لتتصارع على درجات السلام لتصنع أجمل اللوحات البيت في غرابة من أمره كأنه يُغير طبقات جلده ويتشكل كالحرباء كأنه بيت لكل الأزمان.

بشعور مختلف يستمر في الصعود حتى بداية الرواق، يعلم أنه عليه الذهاب، عليه المرور وفتح هذا الباب. يتقدم إلى الأمام والزمن في توقف، فيندفع ليُدخل بجسده داخل الممر، وصوت قدميه الفائتتين على درجات السلالم يسمعها بانتظام. الممر مظلم لا نور ولا هواء يتقدم بعد الباب والحواس كلها كأنها ذهبت واختفت في حيرة من أمرها لا تعي ما بالها، ويتبقى فقط أنفاسه المخنوقة، مُعاندًا إياها ليتابع الحركة، ويجد أن الممر يضيق ويتسع ويطوي نفسه يمينًا ويسارًا، صعودًا وهبوطًا.

نجوم وكواكب تزين سقف الممر، إنها ملتهبة مشعة دون ما حولها يتخبط ويتمايل بين جدرانها التي تكسر ضلوعه،جدران مدببة منقوشة بهذه الكائنات الممدودة إلى سماء الممر المتسع لكل هذه الأفلاك،وزهير غير خائفًا غير مبالٍ لشيء، يندفع بخطوات مُحكمة لا يُعير لغرابة الممر شيئًا من الاهتمام، غير المتابعة في دفع نفسه إلى الأمام وإلى هذا المسار، ليصل إلى النهاية وأول الباب،وفي غرابة قسمت قلبه وأحرقت عينيه من مشهد بديع عند اقترابه من هذا الباب باب نهاية الممر الذي يدفعه برفق. وزهير في خيفة في انتظار ما وراءه من زمان قد عاش فيه أجل الأيام وأتعسها على الإطلاق.

يسقط زهير داخل هذا الفراغ الكبير كأنه يذهب إلى العلا إلى السماء، يجد نفسه قد سقط في نهر جارٍ يقذفه هنا وهناك وحوله هذه الأوراق. أوراق الشجر بجميع ألوانها التي شغلته وقت غرقه وهيامه بين أمواج الماء. تسير معه والتيار يدفعه ويقذفه إلى الأمام حتى يرتطم رأسه بتلك الأغصان

العائمة مغشيًّا عليه. يصحو مفزوعًا من غيبوبته ولم يَعْبُر إلى هذا الزمان بل ذهب إلى آخر يصرخ ويقول:

- أين بيت السيد الخولي؟ أين زماني؟

يجد نفسه ملقى على جانب النهر ووجهه إلى الأسفل، على ضفة تملؤها حصوات كأحجار كريمة براقة ليست من عالمه الذي يُدركه. يظن أنه في حلم غريب وأنه ما زال فاقد الوعي حتى يتأكد من واقع وحقيقة المكان، لكن عقله لا يريد تقبل هذا الزمان على ضفاف نهر جميل، يقف يلتفت حوله في جميع الاتجاهات، يطوف الأرض في هياج. يصرخ ويقول:

- أين الزمان؟ ما هذا المكان؟

ينظر إلى السماء إنها خضراء بيضاء تتخللها تلك الألوان السابحة التي تقسم بنائها في حكمة وجمال عجيب يظن أنه في بعدٍ غريب، في زمن وأرض غير هذه الأراضي التي كان يعرفها بواقعها وبغرابتها إنها أرض ليست كباقي الأراضي التي يستطيع العقل تخيلها وإدراكها، ويتقبل أمره ينظر إلى هذا المكان موقع سقوطه. ليجد بابًا صخريًّا ظاهرًا خلف هذه المياه المتساقطة، ويحدد المكان. لا يعلم أيعود إلى هذا الباب أم لا يقول:

- لا أظن ذلك، والله لن أكررها أبدًا حتى ولو مِت في هذا المكان.

غير مبالٍ يسير في تلك الأراضي الغريبة بين ثنايا الأشجار، بين ما تراه العين من غرابة باستمرار، ينتظر شيئًا قد يجده هناك حتى يمر عليه وقت طويل، وضوء النهار على حالته،والشمس لا تتحرك، لا مغيب ولا ذهاب.

إنها ثابتة في غرابة تتجه إلى قمم الأشجار، تخترق ظلالها من بين الثنايا، لينفذ النور بين أوراق الشجر وأغصانها يجلس زهير مستندًا إلى جانب شجرة كبيرة متعبًا، ينتظر شيئًا لا يعلمه، ويستفق من هذا الانتظار ليهم هائمًا في كل أركان المكان، يتمتع بفاكهة غريبة لم تقع على لسان أحد من قبل. إنها أراضٍ خضراء تملؤها الخيرات.

يُبنى هذا المأوى البسيط من أغصان الأرض، ويستقر فيها بضعة أيام. لكن تزداد غرابته من رؤيته لشمس هذا الزمان،التي لا تتحرك ولا تذهب. إنه نور لا يترك السماء.

***

ثلاثة جبال

إن جمال تلك الأراضي كثيرًا عليه ومخيف جدًّا يخاف أن يفقد عقله، بل يظن ذلك باستمرار منذ عبوره هذا الباب، إلى أن جاء الوقت الذي مات فيه النور واختفى في الأفق، يرى من بعيد بين الأشجار ثلاثة جبال، متباعدين عن بعضهم البعض جبل في أقصى اليمين، يخرج منه نور بهيج، يُظهر تلك البيوت التي تتسلقه، وتؤكد أن حياة هناك قائمة تنبض على هذا الجبل، وجبل كبير في أقصى اليسار تملؤه تلك الجنان، ونورًا هناك يُظهر هذه الألوان، ألوان لأزهار لا نهاية لها، تخترقه جداول من المياه، وفي غرابة يُصدر أصواتًا من الغناء كترانيم الصلاة، وصيحات نساء يملؤها الأنين. كأنين الفراق. فراق المحبة وعمر السنين فهي أصوات اخترقت قلبه وملأته بالخيفة والأسى على حال أهلها. لكن الأصوات في غرابة لا تكف عن هذا الحزن طوال الليل، تقتل مشهد الجبل الجميل، وجبل في المنتصف بينهما، هادئ ومُظلم تمامًا، تعلوه شجرة كبيرة عظيمة ممتدة أغصانها يمينًا ويسارًا، تشير إلى الجبلين. قمتها قد اختفت في غيوم السماء لا حركة ولا حياة ولا نور فيها كأنه مكان مهجور.

شيء يُخبره ويجذبه إلى جبل اليمين، فيأخذ ما استطاع من عتاد ومتاع يعينه على البقاء والاستمرار إلى وجهته. يتحرك نحوه متلهفًا للوصول، والظلام يغلب العين في ازدياد حتى اختفت الأشجار والأغصان فقط الجبل بنوره الذي يتخلل فراغات الغابات ليُنير المكان ويُخبر كل بعيد وغريب بالذهاب نحوه، ويستمر زهير في مواصلة الطريق حتى يتوقف بالقرب منه، لمحاولة فهم مجرى الأمور وإدراك المشهد ومعرفة التمام.

ليلة طويلة. يتحرك حول الجبل دون اقتراب، وقد استغرقه ذلك أيام إنه تائه في عالم غريب غير متلهف لشيء هناك، فكفاه ما رآه وما عاشه من أحداث لكن يحاول الفهم دون استعجال، وفي نفس هذه الليلة ينام زهير متخفيًا عند أطراف الجبل، حتى يفاجئه بعض سكان الجبل، يهجمون عليه بقوة، يقيدوه في صيحات همجية غير مفهومة، ولغة قديمة وغريبة، يتعجب من فهمها، وزهير خائف منهم يحاول فهم ما يحدث، وما الخطأ الذي وقع فيه. إنه بعيد كل البُعد عنهم ولم يمسسهم بأي سوء.

***

النوبان وأرض كان

في وقت قصير فهم وأدرك من نبرات صوهم الحادة أن هناك شيئًا مُحرمًا بالغابة قد إنتكه بوجوده. فهي غابة مقدسة ومُحرمة على أهل الجبل ما عداهم،فهم حُراسها وحُماة حدودها كأنهم من لهم الحق فقط في التجوال يلبسون ثياب دكناء لونها تميل إلى الأخضر، تكسوه الزينة من زخارف نباتية في أشكال سداسية التفرع، وأوراقها من الذهب.

يسحبوه من ملابسه في عنف شديد حتى يغرق زهير في التعب غير قادرًا على الحركة، لا يستطيع التملص أو الهرب منهم يحلم أنه واقف في الظلام يرتدي كمثل ملابسهم، ينظر إلى الأعلى إلى قمة جبل الوسط "جبل الظلام"، ولكن للجبل نورًا شديدًا ينير هذا البيت "بيت السيد الخولي" الذي يعتلي جبل الظلام يجاور هذه الشجرة العظيمة في غرابة يتغير البيت إلى بيته القديم، بيت زوجته وحبيبته المتوفاة، ثم يرجع ثانية إلى حالته كمصباح يأتي بنوره ثم يغيب بعدها هذا الصمت.. طنين.. يشعر مرة أخرى بهذا العنكبوت الذي ينسج خيوطه تحت جلده، فيتقلب في الأرض

في صرعٍ شديد يحاول نبش جلده ليُخرج هذا الشعور المؤلم والمخيف، فيستيقظ مُلقًى على ظهره، ومُقيدًا بأغلال غريبة من صخور شفافة كعقيق قديم..



إنه في حالة مزرية تمامًا الأغلال باردة تلهب عنق اليدين في زرقتها غارقة حتى مرفقيه، يتألم في تعجب من هذا المكان، ويجد حوله هؤلاء الناس ذوو الملابس الخضراء، يطوفون حوله كأنهم يتعبدون إليه في غرابة، كأنه إله في زمن الجهل الذي قد غاب عنه العَلام تسقط كل أوجههم على وجهه ينظرون إليه، حتى يصيح زهير فيهم يصرخ في وجه كبيرهم:

– ماذا فعلت لكي تقيدوني هكذا إنني غريب لا أريد غير الأمان.

يتوقفون عن الحركة والطواف يرد عليه هذا الشيخ الكبير بكلمات مفهومة:

– إنك في "أرض كان " تحت جبل قاف، جبل الأراضي والأزمان، فإنك أسفلها ومُحرم عليك دخولها لكنك الغريب المُنتظر منذ قديم الزمان، وأنت مُقدس عندنا، لا فرصة لذهابك أو خروجك ستكون ملكًا علينا تحكم تلك الأراضي دون أن تتعدى حدود المكان، وهذا ليس خيارًا ولكنه إجبار، وغير ذلك فسوف تموت في عمق الجبل فاسمع نصيحتي وكُن أنت المُنتظر الذي نبحث عنه منذ سالف الأزمان، فما ردك؟

يتحدث زهير إلى نفسه بعد سماعه هذا الكلام ما هذا الجنون؟ ما هذا المكان الغريب؟ آآآآآه إنه هلاكي كنت آمل في العودة ولكني قد إنتهيت تمامًا سأطيعهم وأسايرهم حتى أرى حقيقة هذا الزمان. يرد عليه قائلًا:

– إنني أوافقك على ما تقول، ولكن أعطني الأمان وأخرجني من تلك الأغلال.

بالفعل تُحل قيود زهير الذي سرعان ما يسأله:

- إنني أرى أنك كبيرهم، وأكبرهم مكانة فما اسمك أيها الشيخ؟ ومن هؤلاء؟

يرد عليه:

- إنني "إيلاس" مُنتظر أمير الجبال، وهؤلاء هم كهنتي "النويان"، واحذر إنه محرم عليك الكلام عن زمانك أو مكانك القديم مع أي أحد كان، حتى لا تُحدث فتنة في أرض الجبال الثلاثة "كان".

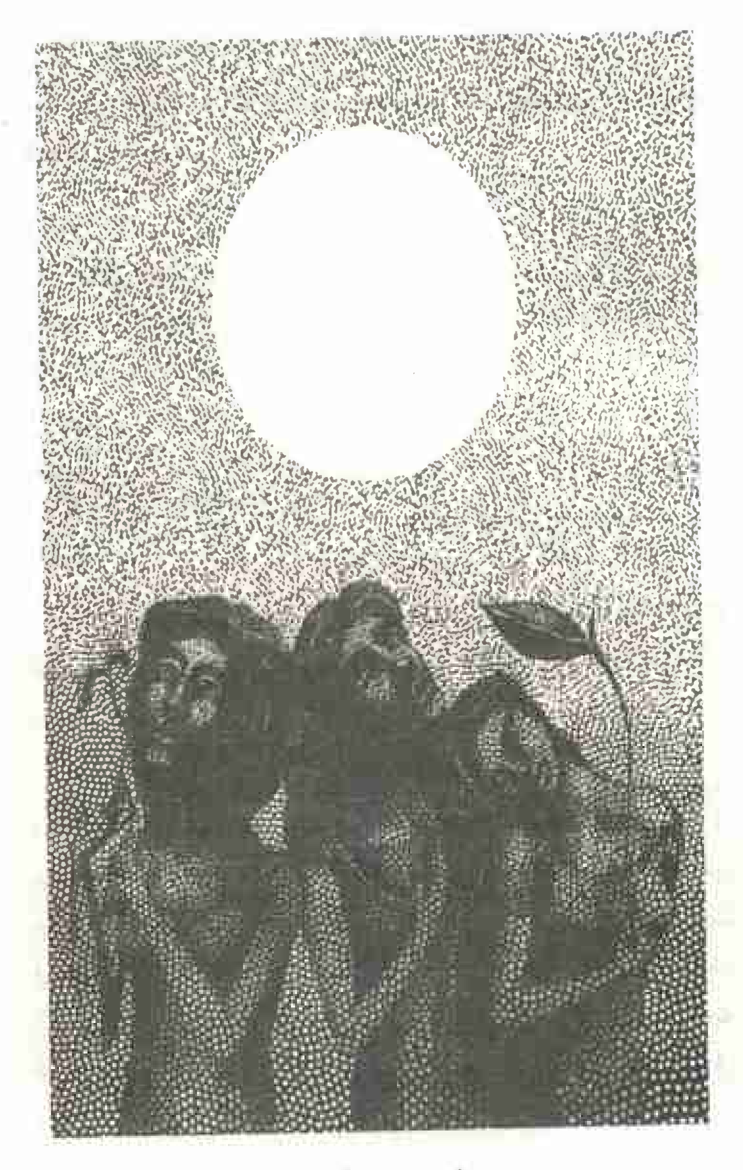
زهير:

- أيمكنني الذهاب خارج الجبل؟

إيلاس:

- نعم مرة في العام ولكن في نطاق طقوسنا، وأرضنا بين الجبال الثلاثة فقط، فهذه حدودنا ومن يخالفها فموت أو نفي بعيد هيا استعدَّ من الآن فسوف تقام مراسم تتويجك ملكًا على أرض كان.

وبالفعل يذهبون بعيدًا عنه يتركونه لراحته حتى يستعد لتتويجه يسترح داخل حجرة لقصر كبير، بنائها من الألياف والأغصان المشدودة، وأوراق نباتية شفافة تتلون إلى الأحمر والأزرق، وأثاث غريب البناء كأنهم أناس من عالم آخر يغتسل ويستلقي على شيء كالسرير، الذي صنع بإتقان شديد في بناء غريب لا يشبه ما في عالمه، وبمجرد أن وضع جسده على هذا الشيء، يجد نفسه غارقًا لينام هنيئًا كأنه يسبح في نومه لمائة عام إنها ليست مُبالغة حول راحة المكان، لكنها حقيقة بالفعل، فقد نام لمائة عام فهو في زمن ليس كأي زمان، تختلف حساباته ومواقيته عن زمنه الذي يعرفه.



يستيقظ زهير من ثباته الطويل كمصاص دماء لا يُعير للوقت أي اهتمام. ناسيًا آلامه وأحزانه يدخلن عليه هؤلاء الفتيات اللاتي قد أنارن المكان في روعة الجمال يتحدث نور وجوههن عنهن يقفون أمامه ينظرون إليه في إعجاب شديد، وبياض الوجوه يقسم من نظر ويقتل من أحب أحدًا منهن يقسم زهير ويعلم أنهن إن وُجدن في زمنه القديم لأستعْبدن أهل الأرض من روعتهن..

ينظر إليهن في تعجب وصفهن، يعرف تمامًا أنهن ملكه وقد أرسلن إليه لخدمته وراحته.. لكن.. نفسه تمتنع عن الخطيئة، فيرى وجه حبيبته التي كاد ينساها، لتدمع عيناه في ذكراها، يقول لنفسه: لا والله لن أنساها.

عيناه تكادان تدمعان والجفون ترتعش، والشفاتان تلتويان حزنًا على حبيبته يتقدمن نحوه في حكمة الجمال وهن ليس كمثلهن شيء يطلبن منه مساعدته في ارتداء زي التتويج. تتقدم نحوه هذه الأميرة الجميلة ذات العين الواسعة والوجه الذي كاد يغلب القمر سطوعًا تقول له:

- إنني المُقربة إليك "آن"، وأنا والفتيات في خدمتك يا أمير "كان".

تنادي آن إحدى الفتيات لتتقدم حاملة زي التتويج تقدمه له. إنه زي فضيٌّ مُرصع بأحجار كريمة حمراء، كحمرة شمس المغيب في أفق البحر الممدود حتى يمسك زهير هذا الزي الغريب ويرتديه من وراء ستار لينظر لهذه المرآة ليجد نفسه أمير حقيقي في الأجمل الأيام.

الكهنة النويان على رأسهم الكاهن إيلاس يتجمعون عند الباب منتظرين إياه، فيتقدمهم زهير يسير في هذا الرواق الكبير، وخلفه هؤلاء النويان ومعه تسير بالقرب منه الجميلة آن يستشعر برعشته التي باتت تصاحبه دائمًا أسفل جلده معتادًا عليها لا يُعير لها أي اهتمام.

يخرجون إلى صالة مهيبة تمتد إلى أفقه تكشف الجبلان، جبل الوسط "جبل الظلام"، وجبل اليسار "جبل الأنين" أهل أرض كان وصيحاتهم ترج هذا القصر الذي بُني على تلك الأعمدة الشاهقة والعوارض المزخرفة التي تبدو تيجانها كرؤوس ضخمة تحمل ما فوقها،والصيحات تنادي لأمير كان، فهو بالنسبة لهم العزيز ملك الجبال الثلاثة.

يسير زهير إلى الأمام كملك قد سُرقت روحه وعمره، تلمع عيناه من جمال هذا الزمان، حتى خرجوا من باب هذا الرواق، يقف أمامهم يراهم يقفون في ثبات وخلفهم من بعيد فتحة ضخمة تكشف الجبلين، والناس في زيهم الجميل من الحرير الملون والشفاف لهم بريق ينير المكان النساء يضعن فوق رؤوسهن التيجان من نبات القمح الذهبي الملفوف على رؤوسهن، وشعورهن في جمال قويم، وملابس شفافة غارقة في البياض الذي تُزَيِّنٌ بتلك التفرعات الزخرفية الذهبية لزهور سوداء، والرجال في ثيابهم البيضاء الذي لا يشوبها أي لون، يقفون جميعهم في هذا النظام أكتافهم متقاربة من بعضهم البعض في حكمة وأدب،ينظرون جميعهم إلى أميرهم زهير يتحدثون بصوت رقيق بنبرات جميلة تشد الأذهان.

بعض العازفين يمسكون بتلك الآلات الموسيقية التي ليس لها مثيل آلات كلها وترية كبيرة، يتحكم بكل واحدة منهم ثلاثة عازفين. أوتارها خضراء ومقابضها فضية بيضاء، تعكس ضوء شمسهم التي أنارت المكان الأرض من رخام ماسي تتزين بأحجار كريمة لا نهاية، ممتدة إلى الأطراف، وزهير في غاية الانبهار والإعجاب بجمال البناء، وقلوبهم ناظرة إليه في انبهار.

يقول له الكاهن إيلاس بصوت خافض يتردد في أذنه تقدم أيها الأمير. أمير كان ممسكًا بيديه تاجًا عظيمًا صنع من عظام مخلوق نادر وغريب يُسمى "الأيزران".

زهير يتابع فقط الاحتفالات الراقصة التي تكتمل بغرابة القوم، فالنساء والفتيات يصنعن ألحان بأيديهن في تصفيق غريب لمنظومة موسيقية تعبر عن حضارتهم الغريبة الساحرة يرى فيهن جمالًا قد فاق أي آلة موسيقية وتأخذه الألحان، وغرابة المكان لا تترك عقله في استمرار تبهره كل لحظة تمر عليه، يسير بينهم ويترك الكهنة النويان، إلى جموع الناس، يسلمون عليه، يحبوه ويتأملوه فهو أميره المنتظر.

غربته وغرابته قد اعتادها يتابعهم بالسلامات والترحيب بقليل من الكلمات، ليجد شيئًا فيهم يبعث في نفسه عدم الارتياح والضيق فالبنات الصغيرات والفتيات كلهن متشابهات، بيضاوات في نصوع شديد، لا وجود لفتاة واحدة تختلف بلونها. يقول لنفسه:

– إنه لحشد كبير ولا وجود لفتاة حتى وإن كانت سمراء أظن أن هناك خطأً ما.

إنه اللون المحبب له، لون بشرة حبيبته الغائبة يتأملهم ويتابع مسيره بينهم، حتى يرى إحدى فتيات الجبل من بعيد تقف وحدها، تنظر من هذه النافذة المُطلة على الجبلان يسألها دون خجل بعد حديثه معها الذي استلطفه وراق له:

– لقد لاحظت أنكن جميلات بيضاوات فقط.

تبتسم الفتاة في تعجب وخجل من قوله، تنظر إلى جميع الاتجاهات ما عداه تقول له، ووجنتيها في هيب الخجل يزداد حُمرتها:

– نعم كلنا بيضاوات أتعلم أن الفتيات السمر فأل سيئ علينا؟!إن أي طفلة تولد هكذا نرسلها إلى هذا الجبل البعيد خيفة منها ومن فألها السيء.

يتعجب من قولها ومن هذه العنصرية القديمة يسألها:

– لماذا هن فأل سيئ، لا أجد لذلك تبرير.

الفتاة:

– أيها الأمير، إني أجد غرابة في عدم معرفتك لذلك وأنت أميرنا!

زهير:

أخبريني فقط بما تعرفينه؟

الفتاة:

– قبل مجيئنا إلى تلك الجبال، كنا نعيش في السهول والوديان، والفتيات كلهن بيضاوات، إلى أن جاء هذا اليوم الذي ولدت فيه فتاة

سمراء كانت جميلة تأخذ كل بريقٍ فوقها، وشعرها الأسود يملأ عينيها جميلة تختلف عن أي فتاة من فتيات كان.

زهير:

- أين المشكلة إذًا؟

الفتاة:

- بعد ميلادها أنهارنا قد جفت، والشمس التي لم تغِبْ عنا قط، قد غابت وذهبت وطال غيابها، وعلمنا أننا قد إنتينا وستحل علينا مصيبة ما. فذلك لم يحدث من قبل، وضاع من قومنا الكثير من الناس في ظلام الوديان، لا نعرف عنهم شيئًا إلى الآن. ثم تأتى شمسنا، وأشرقت بنورها. ليأتي ونعلم معنى الصباح كلنا نهيم في هذا الثبات الذي كاد يُمحينا، ونضيع مع من ضاعوا يبدأ عصر جديد والشمس تسبح في السماء ليس كعادتها لتنطفئ،ونبدأ ليل طويل حتى اعتدنا ذلك. لكن.. كل الشكوك تشير إلى هذه الطفلة الصغيرة التي أطلقنا عليها " النور الأسود " يجدوها دائمًا تلعب بالقرب من المغيب، وخلفها الشمس تودعنا، وسمارها يُزِيدنا خوفًا منها.

زهير:

- لا أظن أن ذلك سبب كافٍ لنبذهم ونفيهم بعيدًا إني أرى أن ذلك ظلم كبير.

الفتاة:

- انتظر أيها الأمير، لم أكمل لك ما حدث.. لم يقف الأمر على ذلك، بل ازداد غرابة، وأفقدنا القدرة على التفكير. لقد تتابعت مصائبنا، بعد أن اعتدنا غياب الشمس ومجيئها، لنجد أن بعضًا من فتياتنا كل ليلة يختفين، وفي الظلام نسمع نداءاهنَّ من بعيد كانت أيامًا وسنوات قاسية لم نعرف معنى الراحة حتى قرر كهنتنا بنفي أي فتاة سمراء تولد بيننا رغمًا عن أهلها فيأخذوها في رحلة طويلة إلى جبل اليسار، الذي تسمع دومًا منه أنينهم من بعيد.

زهير:

- كيف ذلك؟

الفتاة:

- يأخذها الكهنة في هذا الموكب، ويسلموها إلى أميرة جبل الأنين، ثم يعودون إلينا يبشرونا بأنها قد رحلت هناك في البعيد.

زهير يدرك تلك الغرابة في هذا العالم:

- شكرًا لكي لتوضيح ما سألت ولا تتعجبي من سؤالي فأنتِ لا تعلمين ما قد مررت به.

يبتعد بهدوء عن الفتاة ويتحرك بينهم،يفهم بعضًا من عالمهم إنها حضارة لزمن بعيد لأرض غريبة بنائها عجيب زهير يشعر بالعطش فجوفه قد جف مما سمع وعلم به عنهم، يريد أن يبلل شفتيه حتى يأخذ كأسًا من الماء،

ويلاحظ أن الفتاة آن تراقبه من بعيد، مبتسمة له تنتظر طلبًا يطلبه منها يسلم على قوم هذا الزمان، ويبتعد رويدًا رويدًا على الأطراف ليسير في طرقات القصر التي لا تنتهي دون فقدان. يُفكر في حاله يقول:

– يا للمصيبة! أين أنا؟ وما هذه الجبال وأهلها؟ وما حكاية هذان الجبلان؟ كيف حال هؤلاء الفتيات البائسات؟ إنهم قذفوا وتركوا بعيدًا وحيدات بعيدات عن أهليهم. كيف هذ ؟!

يعلم زهير الآن مصدر هذا الأنين الذي يُكسر وجدان السامعين في هذا العالم، يقول لنفسه:

– لا بأس يا زهير انتظر مجيء الليل لترى ما سوف تفعله في هذا المكان.

يطوف بين دروب وأروقة القصر، وهناك شيء يُحيله إلى الاختناق. فأزمنته تتحرك كقفزات العنكبوت وكل مكان يسير فيه كأنها الخيوط التي تهده وتشده إلى أعماق مظلمة يتوه فيها ولا يفهمها يشعر بالحمق والجنون لما رآه وعاصره فهو مجرد إنسان بسيط، يعرف أنه ضاع بين الأزمان، بين الألوان وضجيج السنين يسأل نفسه:

– لماذا أنا من كان له حق العبور؟ لماذا أنا؟

يلاحظ أن الفتاة آن قادمة من بعيد تلاحقه حتى تدركه وتقول:

– أين كنت أيها الأمير؟ إنني كنت أبحث عنك بين جموع الحاضرين دعني أدلك على المكان لكن اسمح لي فإيلاس والكهنة النويان يريدان التشاور معك حول أمور المكان.

زهير:

– نعم لكن اتركيني بعضًا من الوقت، وبعدها سأعود إليكِ وإلى النويان.

ترى الفتاة آن أن الأمير سارح، ولم ترد أن تزيد في إزعاجه لتنصرف بعيدًا تقول:

– أمرك أيها الأمير إننا في انتظارك.

تذهب إلى النويان، يسألها الكهنة في غضب:

– أين الأمير يا آن ألم نخبركِ بقدومه معكِ.

الفتاة آن:

– نعم إنني قد بلغته بأهمية عودته لكنه كان مشغولًا سارحًا، يتفقد القصر ولم أرد إزعاجه، وقد أخبرني أنه سيعود قريبًا.

وفي نهاية كلماتها كان زهير قد عاد، يدخل عليهم بصمت إلى هذه الحجرة المقوسة جدرانها، يعلم جيدًا أنهم يحتاجونه بشدة. ويزيد من صرامة ملامحه ليُقيد كلماتهم فيعلم ويُدرك قلة حيلتهم وضعفهم أمامه يقول:

– كنت أفكر في حال الجبل وأهلها، ومنصبي هذا.

يسلم له إيلاس هذا الصندوق المليء بالمفاتيح القديمة يخبره ويقول:

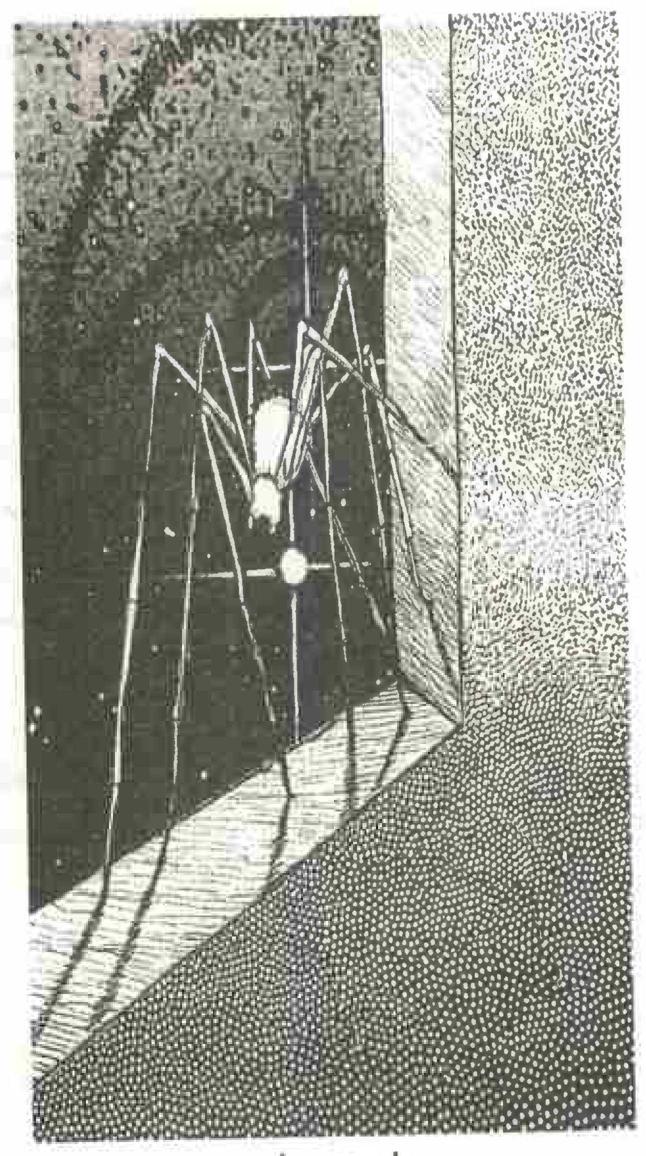
– هذه مفاتيح القصر، وخزنها التي تحت تصرفك وحدك وأنت القادر على فتحها وغلقها، فأنت الأن أميرنا تحكمنا تحت قوانين المكان لك كل ما تأمر وحياة طيبة في أراضينا.

يشكره زهير ويتسلم منه هذا الصندوق، يخبروه:

- سنتركك الآن أيها الأمير لمتابعة شؤون الجبل وغدًا سنلقاك عن قريب للتشاور في أمور الجبال.

يذهب الكهنة بعيدًا يتركوه في قصره له ما له من خدم يسهرون على راحته وطاعته. لكن.. زهير لا يستشعر راحة منهم، من هؤلاء الكهنة النويان يرى أنه سيعامل كدمية يحركونها، ولكن يرى فيهم ضعفًا يستطيع قهره وقتما يشاء يجلس زهير على هذا الكرسي يتلفت حوله ويتمتم بغضب ينظر بدقة إلى الأرض يراها غريبة تشبه شيئًا قديم يعرفه،ويظل ينظر في غرابة لأرضية هذه الحجرة حتى تناءت الأصوات، وانتشر السكون ليأتي ظلام ليلهم الطويل ليتملكه اليأس، يذهب إلى سريره البعيد وعيناه ترتعشان يرى هذا العنكبوت الأبيض يجرى مسرعًا على زاوية نافذة الحجرة ليقفز خارجها يجري زهير مسرعًا ليرى لماذا هذا العنكبوت الأبيض هنا ينظر خارج القصر وفيه رعشة وقشعريرة تمتد إلى عنقه، في كل الاتجاهات يبحث عنه ولكنه قد اختفى تمامًا في الظلام. يعلم أنه يُهيئ له ذلك من شدة الإرهاق، فيعود إلى سريره ويمدد جسده البالي يحاول النوم.

إنه يفكر بعمق في هذا العنكبوت الأبيض وفي أرضية الحجرة التي تذكره بشيء قديم، يبحث بين ثنايا عقله، ويحاول ربط أي شيء متعلق بما رآه لكنه لا يرى سوى نتيجة واحدة وهي هلوسة التعب والإرهاق..



العنكبوت (4)

أنا غير المنتهي، لا أول ولا آخر. لا شيء موجود تبًا لكم! سأصرخ عليكم أغبياء، لا تفهموا معنى الغباء كلكم كاذبون تركتموني أسقط في البركان. أسقط من بيت كبير، لا ألامس أرض المكان، أسقط دون نهاية دون عنوان لا تخف مني أيها العنكبوت. إنني غير مرئي. لا أعلم بوجودك لن أقتلك، لن أقتل أحدًا بعد الآن، لن أقتل الحشرات، لن أجري وراء الذباب، لن أفهم هذا الكلام. فأنا الضائع. أنا هو. أنا العدم. أجرى هناك، أصرخ وأنادي شيئًا غير مفهوم. تبًا لكم لن تفهموني. فأنا لا أعلم هذا المكان.

يغلق عينه ليستيقظ في صباح بعيد، ويمر الزمن مسرعًا كقفزات العنكبوت يتابع الليل والنهار اللذين يتحركان كأنهم بين الأنامل لا وجود لهم. وينطوي الوقت مسرعًا كأنه تائه عن ضالته التي كان يبحث عنها وقتها. يتمتع بهذا المتاع المُتاح، ويتعلم قوانين المكان من الكهنة النوبيان. يهيم بين الأروقة والطرقات يتعجب من هول وضخامة هذا الجبل المهيب.

وكان هذا النهار، يجلس زهير بعيدًا عن قصره في خلوة بين حواف الجبل يتأمل من بعيد هذا المكان يصرخ يناديها، لحبيبته، ودموعه تترقرق

بين جفونه، وتحكي واقعًا قديمًا قد فاته هناك. وذكريات وأشخاص عند هذا الجانب الآخر من هذا المكان. يتكلم إلى نفسه:

- أعلم أنكِ لم تعودي تسمعيني الآن، لكني سأظل أصرخ مناديًا إياك حتى أحبس ذكراك في صدري، وسأكبح كل شيء وأتركه خلفي دون غيرك، وأترك العنان لحبكِ القديم.

يتأمل هذه السماء الخضراء والطبيعة الساحرة ينظر إلى مشهد الجبلين، ويتعجب من هذا الجبل شديد السواد، شديد القتامة مهيب ومخيف المنظر، لكنه جميل جدًّا يدفعه للتفكر في حاله وحال ما عليه، وكيف وكل نباتاته قاتمة هكذا سوداء هكذا سارحًا في هذا الزمن يسمع صوت آن تناديه من بعيد حتى تقترب منه تخبره:

- الكاهن إيلاس يطلبك للاستعداد لرحلة الجبال، وإقامة طقوس أرض كان.

يترك زهير مشهده ويحتفظ بذكراه،ويذهب معها يتحدثان طوال الطريق إلى أن يصل إلى الكاهن الذي يُخبره:

- السلام عليك أيها الأمير ستقام غدًا طقوسنا وشعائرنا وسنطوف الجبلين فاسمح لنا بالذهاب وأتمنى أن تشاركنا، ولتتعرف على أرضنا أرض كان.

زهير منذ قليل كان يفكر في الجبلين وشيء في نفسه تريد معرفة سرهما، يقول:

- ولِمَ لا؟ أعلمني قبلها بقليل لنذهب معًا نطوف أرض كان.

رحلة الجبال

وبالفعل مع بداية صباح هذا اليوم، يتقدم زهير مُستعدًّا لرحلته، يسير بينهم كأمير عظيم له حسن المقام، فذلك ليس بجديد عليه فقد كان الوزير، والعالم الجليل في زمن من أحد أزمان الممر بجواره تسير معه الفتاة آن، والكهنة النويان خلفهم بعض من الحراس والخدم، يتجهون لهذا الموكب الكبير يصعدون إلى تلك العربة ذات العجلات الكبيرة، التي تحمل فوقها بناء عظيم يسحر عين من يرى. إنه كموكب في بلاد العجائب.

يصعد زهير والكهنة ومعهم آن، يجد في الداخل بهرجة ومتاع كقصر متحرك. يدخلون معًا والخدم حولهم مكرسون لراحتهم. يجلس زهير مع آن يُحدثها عن جمال الجبل والمكان حتى يتحرك الموكب في طريق واحد ممهد تكسوه الجنان النباتات المتسلقة على الأشجار المرتفعة كأنها أسور تحمي طريقهم من شيء ما يسألها زهير:

– ما محطتنا الأولى يا آن؟

الفتاة آن:

- إننا ذاهبون إلى جبل الظلام، نلقي به بذور الورد ونقدم طقوسنا حتى تقينا من شر الظلام إنها طقوس وتعبد لهذا المكان، حتى لا يمسنا شره أي إنس من أهل كان إنها بذور الورد الأسود التي تحاصر ظلام المكان.

يتعجب زهير من كلام آن، ويتلقى كلماتها كأحجار ترتطم بوجهه، لكنه يتقبل كلامها وخرافاتها ومشاركتها الحديث عن مجالسة هؤلاء الكهنة الغاضبة وجوههم. مُفضلًا الاستغراق في حديثها. يتابع ويُخبرها:

- منذ متى وأنتم تقيمون هذه الطقوس؟

آن:

- كانت مصائب قومنا مستمرة، إلى أن وطأت أرجلنا الجبال، وقد كانوا في بداية الأمر متشابهين. لكن بعد إقامة أول الطقوس "طقوس الورد الأسود" بدأ الظلام يجنح إلى هذا الجبل لنحاصره فيه، ولم يعد هناك اختفاء لبناتنا بعدها.

زهير يرى كلماتها ثقيلة قاسية وهو كالأحمق يصدقها تصفعه بخرافات طوال الطريق يستقبل ذلك دون ألم، إنه يريد فقط مجاراتها ومجاراة قومها، يستأذنها ليذهب ليغتسل ويبلل رأسه ببعض الماء ينظر ووجهه باردًا في صقيع شديد يقول:

- ما هذا الجنون يا زهير؟

يعود إلى آن صامتًا لا يريد الكلام معها فقد اكتفى من هُرائها لينظر من نافذة مركبته، وكأنها صفعة تحطم عظام وجهه ليرى هذا الجبل عن قريب، الذي بحق يُغرقه هذا الأسود القاتم نباتات، صخور، أشجار، طيور،

وكائنات أخرى صغيرة كلها سوداء،ما يميزها فقط هو هذا الضوء الساقط عليهم، والقادم من شمسهم البعيدة.

عين زهير تدمع لرؤية هذا الجبل الأسود الذي يمتص كل بريق فوقه. يرى تلك الغيوم الخافتة التي تتحرك بداخله يؤمن بكلامها، ويعلم أن هذا العالم له قوانينه الخاصة به وأنه الجاهل الذي لا يعلم. تُهدئ تلك المشاهد من روعه وتبرد صدره، كأنها تواسيه دون أي زيف أو نفاق يستعدون لإقامة الطقوس، ويرتدون زيهم "زي أداء طقوس الجبل"، إنها عباءات بيضاء، تخفي كامل أجسادهم في إحكام خوفًا من أن يغمرهم نور الظلام.

يتوقف الموكب ليترلوا على أرض الجبل مع بعضهم البعض متقاربين، يخبرهم الكاهن إيلاس:

- احذروا الابتعاد أو التراجع فسنسير معًا بخطى واحدة أخاف عليكم الهيام والابتعاد، فقد تضيعوا بلا رجعة في ظلام الجبل.

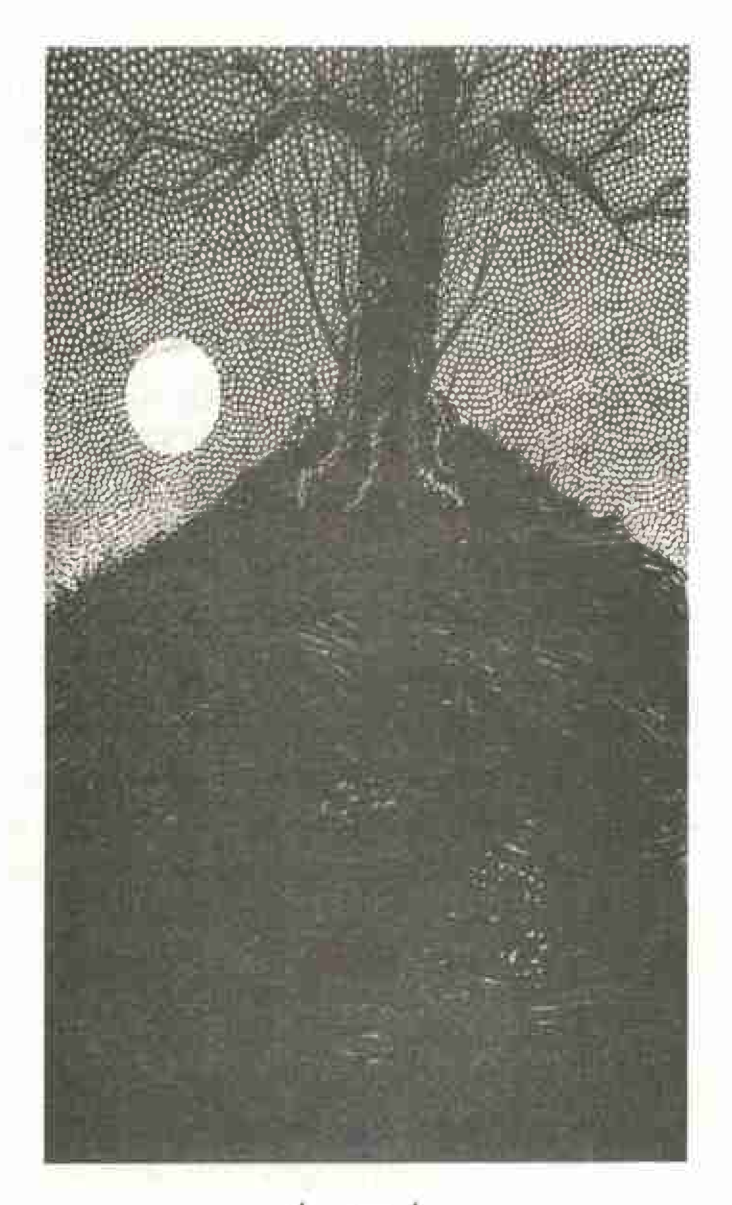
يسيرون معًا في خطّ واحد متقاربين، وزهير يخبر آن بروعة الجبل وجماله الذي لا يضاهيه أي مكان حتى جبلهم "جبل اليمين"، وهي تأخذ كلماته بغرابة تتعجب من عينيه اللتين رأتا في هذا الظلام القاتم جمالًا صادقًا إنه إنسان من زمان آخر، لكنها لم تعلم بعد أصل حكايته ومنبع روحه.

زهير:

- أفي الإمكان أحد يسكن هذه الأرض؟ فأنا لا أرى أي أحدًا هنا!

آن:

- إنها أرض محرمة على أهلنا، وها نحن ذاهبون، وضع تلك البذور في أرضها حتى لا تجوع يأكلنا ظلامها ونتوه مع من تاهوا قبلنا.



ويستمر المسير في أرض الجبل في سوادها القاتم ورائحة الصمت والسكون المخيف يملأ جوف زهير في تعجب، حتى يصلوا إلى أرض ترابية مستوية خالية تمامًا من النباتاتِ يهم كل فرد منهم ويتبعهم زهير وآن، يخرجون من جيوبهم الجلدية البيضاء بذرة واحدة مما معهم، ويحفر زهير بيديه حفرة عميقة بطول ذراع يلقيها في الأعماق يتبعهم مناديًا يقول معهم:

– إلى ملك الأرض وسيد الكلمات.. إلى ملك النور ومُبعد الظلمات أبعد ظلامًا في هذا المكان.. ليسطع النور.. ويحترق ما يكون.

ويستمروا على هذا الحال، حتى يُفرغ كل واحدًا فيهم كل ما في جعبته من بذور يرى فيهم زهير بعض الجنون وبعض الصدق، فالأرض غريبة لزمن قد اختلفت سماته وقوانينه، وينتهون من ذلك ليبتعدوا عن هذه الأرض لينظر خلفه ويجد أن ما بذروه قد أنبت في هذه اللحظات القصيرة لا يعلم ماذا يقول، يتجهون إلى أسفل الجبل في خوف من شيء ما وخاصة الكاهن إيلاس والنوبيان.

يراهم يلتفتون إلى هذه الشجرة الغريبة التي تعلو الجبل، مسرعين إلى الأسفل كأن هناك شيئًا يُخيفهم عندها مما أبعث في نفسه هذا الشك المجهول حول هؤلاء الكهنة وما وراءهم من أسرار.

إنها الشجرة التي رآها فور دخوله هذا الزمان جميلة بحق. لكن.. يسأل نفسه لما الخوف منها؟! لا يُريد سؤالهم عنها، لا يُريد الإفصاح عن غرابتهم وخوفهم منها مكتفيًا بالصمت، وإكمال المسير إلى أسفل الجبل إنهم مرهقون من وعورة هذا المكان، وكانت الشمس في وقت مغيبها تجعلهم

يسرعون، حتى يصلوا إلى باب مركبتهم يصعدون في لهفة شديدة يغلقون الباب بقوة وراءهم، كأن عفريتًا كان يُطاردهم.

يستكملون المسير بسرعة للخروج من أمام الجبل ليتحرك الموكب تاركًا خلفه خوفهم من هذا الشيء الخفي إنهم متجهون إلى جبل الأنين "جبل البنات السمر"،ويمر الوقت وزهير فضوله يدفعه لسؤال إيلاس حول الجبل دون أن يشعره بغرابة خوفه منها:

- ما حال هذه الشجرة ذات التفرعات أيها الكاهن؟

الكاهن إيلاس:

- إنها شجرة مُقدسة قديمة كقدم هذه الأرض، وهي محرمة علينا دخولها أو الاقتراب منها إنها من بدأت كل شيء في بادئ الأزمان، فهي أمننا، ودمارنا إذا أخللنا بقوانين المكان نقدسها كإلهة لنا نحن أهل كان فمهما تكن الظروف لا تقربها أو حتى تنظر إليها، فقد يصيبك ويصيبنا هلاك لا هروب منه، وأنصحك ألا تتحدث عنها فنحن نخاف ذكرها بيننا.

يرى زهير أن الكاهن خائف جدًا من شيء ما، وهناك خطب ما فيه لا يريده أن يراه ليذهب إلى هذه الفتاة اللطيفة آن يجلس معها تتحدث له عن نفسها وهو منصت مستمتع بكلماتها الرقيقة التي تعبر عن صفاء روحها وطيب سريرتها. تسترسل معه في الحديث طوال الطريق حتى يتأكد الظلام ليتوقف الموكب عن حركته، ويهم كل إلى نومه.

النوبان غارقون في صمتهم وتكتمهم وخاصة إيلاس الذي يخفي شيئًا لا يريح زهير حتى يتركهم زهير مبتعدًا مع آن كأنها هي من لها حق الكلام غريبة عنهم، فهي ألطفهم وأكثرهم بساطة في البيان.

زهير يفتح قلبه للفتاة آن دون أي افتتان، ويَخرج لأول مرة عن صمته وذِكراه المؤلمة ليتكلم عن حبيبته الغائبة، يخبرها ويتحدث عنها يقول:

- كنت متزوجًا من فتاة ليس لها شبيه ولا مثيل لم أحب أحدًا هكذا لكنها ماتت في يوم بعيد ليس كهذه الأيام لقد عذبني فِراقها دومًا، حتى الآن لا أقدر على مداواة ألم فقدانها عشنا ما عشنا سنوات من الحب الذي لا ينتهي، لكنها فاجأتني، وتركتني وحدي هائمًا ضائعًا في ذكراها أتأمل ملابسها وأدواتها وموضعي قدميها اللتين ما زالتا تحرقانني حتى الآن. أنظر إلى هذا الكرسي أتأملها وهي تمشط شعرها آآآآآه.. ما أجمل ذكرها! وما أصعبه ألمًا! أتمنى ولو أستطع أن أراها ولو لمرة واحدة.

آن تبتسم في غرابة تنظر إليه وتقترب له، ليشعر زهير بغرابتها، تفاجئه وتقول:

- من قال لك أنك لا تقدر؟ إنها معجزة هذا الزمان، ولم يفت الأوان لكن احذر جيدًا الكهنة واسمع ما سوف أقول.

زهير:

- ماذا تقولين؟!

آن خائفة من أحد قد يسمعها، تقول:

- أنصت جيدًا أيها الأمير إن كنت قد فقدت عزيزًا لديك، بشرط أن تكون صلتك به قوية جدًا، فقد تستطيع إعادة حبيبتك إليك مرة أخرى. وهذا هو سر هذا الزمان. ولكن.. إن أردت أن تفعل، يجب أن تكسر قانون الجبل وميثاقه.

زهير:

- أجننتِ يا آن؟!

آن:

- اسمع ولا تقاطعني لا أحد من أهل أرض كان يعلم ذلك سوى هؤلاء الكهنة، وعرفت بهذا الأمر خلسة عندما سمعتهم في حجرة سرية بالقصر يتحدثون ويهمهمون حول طقوس لإعادة أحد النويان الذين ماتوا منذ قديم الزمان، وقد فعلوها إنه هو نفسه إيلاس. إنهم يخفون شيئًا لا أعلمه، ولكن كل ما أعرفه هو هذا الأمر، وأنك قادر على إعادتها نعم. إن هذا أقرب إلى الجنون، ولكن صدقني أن هذا ما حدث،واعلم إنني لم أخبر أحدًا قط بذلك السر سِواك، فإني رأيت فيك إنسان طيبًا ومتأكدة من أنك تائه وليس من هذا الزمان.

زهير في غضب من كلماتها، وكاد يصرخ فيها حتى تضع يديها الصغيرة على فمه مرعجة خائفة والدمع في عينيها:

- اصمت.. لاًا!.. سيعلمون ما أعرفه.لاًا!.. اصمت.

يهدئ زهير من خوفها، ويعتذر عن رد فعله:

- اعذريني فهذا جنون..! لكن أكملي ما لديك أريد أن أعرف باقي سر هذه الشجرة.

آن ما زالت الدموع تترقرق في عينها وزهير ما زال يعتذر:

- اقسم بأنك لن تخبر أحدًا؟

زهير يقسم لها أن ما سوف يسمعه له وحده، يقول لها:

- لن أُعرّضك لخطر أبدًا، اعذري حمقي، فمقامك عزيز عندي، ولكِ مني الأمان.

آن:

- إن الأمر بسيط لكن له خطر كبير فهناك العقاب والنفي لكما بعيدًا عن الجبال، وأخاف أن يقتلوكما.

زهير في شك من كونها تتلاعب بعقله وتستغل ضعفه لحب زوجته. لكن.. طيبتها وحسن طلتها تجعله يستمع لحديثها، تقول:

- إذا أردت وقررت، فسوف تصعد إلى هذه الشجرة ولا تُفلت عينك عنها أبدًا تفكر في حبيبتك فقط، لا أحد غيرها، تتذكر تفاصيلها، أجزاءها، كل ما هو متعلق بها. كأنك معها تلامسها حتى تخبرك الشجرة بوجودها هذا ما أعرفه.

زهير يكتم غضبه ويكتفي بما سمع تاركًا إياها، وهي تنظر إليه خائفة من إفشاء سرها بينما هو يُعاتب نفسه بإخبارها عن حبه وألمه الوحيد، يرى أنه كشف سِره لها وقد أصبح ضعيفًا أمامها يفكر فيما لو كانت صادقة،

فماذا يُمكن أن يحدث له؟ وإن كانت كاذبة وقد تعلق بهذا الأمل فهو هالك لا محالة.

الموكب يتحرك إلى الأمام إلى جبل الأنين، وخلفهم الجبل الأسود خارج نافذته يلاحظ من بعيد أن شجرة الجبل "ذات التفرعات" تشير إلى بقعتين غير الجبلين لكنهما غير ظاهرين فالتفرعان منذ البداية لم يُشيرا إلى هاتين البقعتين لم يتكلم زهير مع أحد حول هذا الأمر،حتى آن التي اعتادت التحدث معه وإخباره ما لديها.

يتعجب كيف تغير هذا المشهد الذي اعتاد رؤيته عند جبل اليمين وفور دخوله هذا الزمن، كأنه خداع، ويستمر الموكب في المسير، ويكتم داخل صدره حديثها وما يعلمه من خداع ينظر خلف نافذته الدائرية البيضاء ومغيب الشمس، يتأمل من موكبه في البعيد، النور يتحرك في انتظام ناحية هاتين البقعتين إنه المكان الذي أشار له هذان التفرعان بقعتا أرض تمتصان النور من خلف الأغصان، تكتسب نورهما من مغيب الشمس الراحلة في المدى.

شيء خبيث يتحرك، وعينٌ تنظر خِلسة، فإيلاس ينظر إلى زهير كأنه يعلم ما يراه وما قد عرفه، ويشعر زهير أن بداخل هذا الرجل عالًما ومعرفة بشي خبيث وخفي لديه، وقد وجد في نفسه خيفة من غموض هذا الشخص متجهم الوجه وكهنته النويان .

صمت، وتوتر شديد مما رآه، وما قد لاحظه على الكهنة النويان، يُفكر في ما قالته آن، بالرغم من يقينه بكذبها وغدرها، لكنه تائهًا في فراغ عقله

المجذوب بحبيبته الراحلة، يفكر فيها ويصارع نفسه المخنوقة لتشتد رعشته في يديه ويشعر بتلك الخيوط التي تسير أسفل جلده هذا الشعور المؤلم والغاضب الذي يأتي فور تذكرها والتفكر فيها.

***

العنكبوت (5)

لا بأس.. كلكم كاذبون. أرى ضعفكم خلف الأبواب فأنا المجذوب أذهب دائمًا لبيت مهجور بيت يفهمنى أعيش فيه أرى قمري ونجومي التي لا تغيب حين ينام الجميع، أكون أنا الموجود. لقد حان ميعادي أجري هنا وهناك أصنع هذا المجد العنيد أصرخ في كبت شديد لا بأس بوجود العنكبوت حتى ينتهي من صنع الخيوط.

زهير يقاوم، ولكن تغلبه عاطفته يقول لنفسه:

– إن الزمن غريب يا زهير، وقد تكون بالفعل صادقة. فلم لا.

يذهب إليها ويعتذر عن تركها غاضبًا:

– اعذريني يا آن، واغفري لي غضبي، أتسمحين لي بالجلوس؟

آن:

– تفضل يا أمير كان.

زهير:

– احكي لي مزيدًا عن شجرة التفرعان، وكيف تعيد الإنسان؟

آن التي رأت فيه بعض الهدوء، والسكينة تخبره بنظرات العطف متأثرة بحاله، تحاول مساعدته بحق:

– أيها الأمير ألم تلاحظ خوف وحذر الكاهن إيلاس منك؟

زهير:

– نعم أشعر دائمًا بالريبة في تصرفاته.

آن:

– إن كل من وطأت قدماه على أرض هذا الجبل،يكتسب تلك المقدرة في إعادة من يشاء لذلك قد خاف إيلاس عندما اقتربنا كثيرًا من شجرة التفرعان مما دفعنا للنزول مسرعين إلى العربة ألا تتذكر؟

زهير:

– بالطبع أتذكر، لقد كان خائفًا جدًّا.

ثقة زهير فيها تزداد قوة يرى فيها هذه الفتاة الطيبة التي لا كذب في لسانها، ولا خداع. تقول له:

– لذلك لك ولي القدرة على إعادة أي إنسان لكني لا أعرف أحدا من أهلي، وإني يتيمة الأب والأم من بعد ولادتي بعام، فأنا لا أعي صورهم ولا شيء منهم، ولذلك لا أقدر على إعادة أحد منهم.

زهير:

– آسف لقد ذكرتك بهما. اعذريني.

آن:

– لا تحمل همي أيها الأمير، فحقيقة أشتاق إليهما لكن عدم تذكر وجهيهما يخفف عنى كثيرًا. لكنى أخاف عليك بذهابك إلى هذا الجبل. فبعدها ستضيع وتنفى مع من تحب إلى الظلام خارج أرض كان.

زهير:

– ولِمَ لا يا آن؟! كيف لي أن أضيع وأنا سأصبح مع حبيبتي سيدة أركان ضلوعي سأذهب معها إلى أيًا كان. كيف أتوه في الظلام؟ فهي النور الوحيد الذي فاتني منذ زمن بعيد لا أظن ذلك يا آن سأظل معها، وسأفعل مهما كلفني الأمر لاستعادتها، وإن كانت هذه فرصتي، سأقتنصها حتى ولو كلفني ذلك حياتِ فوالله لا حياة تطيب من بعدها.

آن تنظر لزهير في إعجاب شديد به وبحبه وإفتتانه بحبيبته تتمنى لو كان هناك إنسان يحبها كحبه لزوجته، وتستمر في حديثها معه وفي عينها هذا البريق بريق الإعجاب يخبرها زهير:

– إن كنتِ على حق ولى المقدرة فعلا على إعادة حبيبتي فأنا أكثر الناس حظًا ولا أريد بعد ذلك شيء.

يهيم زهير يُصدقها،ويُحدث نفسه كمجنون يتخيلها ويتخيل حقيقة هذا الكلام، يأمل ويدعو بأن تكون صادقة لا تخدعه يهمهم في سعادة،

وآن مبتسمة تعلم مدى سعادته إنها روعة اللقاء بعد الفقدان كيف لإنسان يرى ويعيش هذا الحب الصافي وفجأة يُسلب منه ويختفي، إنه شعور قادر على القتل أو يصنع حياة مريرة تقسم من أصابه هذا القدر.

آن:

- لِمَ لا تحدثني عنها؟

زهير بقلبه يُحدثها ويحكي لها عن ملامحها وصفاتها:

- إنها صافية هادئة تأخذني دومًا إلى الأمام لهذا الأفق أفق السماء الذي يلامس هذا البحر العظيم في لونه البرتقالي العذب تخبرني دائمًا بأني أفضل إنسان، فتسلب مني هموم الحياة تاركةً فقط سعادة وبسمة في صدري عيناها براقتان دومًا تُنير فضائي، تمنحني السلام والأمان أحبها ولا أعلم شيئًا سواها.

يقتربان من جبل الأنين،حتى يبدأ الجبل في الوضوح والاقتراب البطيء، الذي يُزيد من الإحساس الخانق للانتظار، يرى هذا المشهد، ويفكر في إعادة حبيبته، هذه الفكرة التي أصبح يستنشقها كالأثير يُحاصره الزمن ومرارة الخوف مما هو بعد يشعر بهذه الاتهامات حوله تحاصره وتسأله لِمَ غضبت من آن؟ وقد يكون لك فرصة لقاء حبيبتك أيها الغبي،فلا تضيعها، ويقرر زهير الانتظار ويُمعن النظر لما حوله، ليجد نفسه تخبره:

- انتظر واصبر حتى يأتيك السبب لتمضي وتحقق غايتك.

مشهد جميل،وهذا الأنين،أنين البنات السمراوات يطعنه طوال الطريق. يعلمن أنه الاقتراب والوصول إلى محطتهن الأخيرة، وبمرور الوقت يتزايد غرابة الطريق فيختلط ظلام ما خلفهم من أطراف الجبل بألوان وزهور جبل الأنين إنها ألوان لا وجود لها ولا مُسميات في عالمه البعيد تدرج عظيم، يصارع تباين شديد، كومضات السفن السابحة في ظلام البحار حتى تلتهم تلك الزهور قوة الأسْوَد لتتلاشى خلفهم، ويبقى أمامهم هذا الجبل.

يهيم زهير بين ما يراه وحبيبته التي سيستردها في هذا الزمان، وفي ظل هذا الهيام يتوقف الموكب فقد وصلوا أمام الجبل ونهاية طريق الجبال الثلاثة،ويتقدموا إلى باب العربة ليهموا في النزول بمقدمتهم زهير "أمير كان" يجد هؤلاء النساء، والفتيات، والأطفال السمر يقفون في انتظارهما، ليستقبلوا موكب الأمير الذي يُعبر عن حسن المقام،وخبر تتويج أمير كان يتقدم زهير نحوهم، وينظرن إليه مبتسمين.

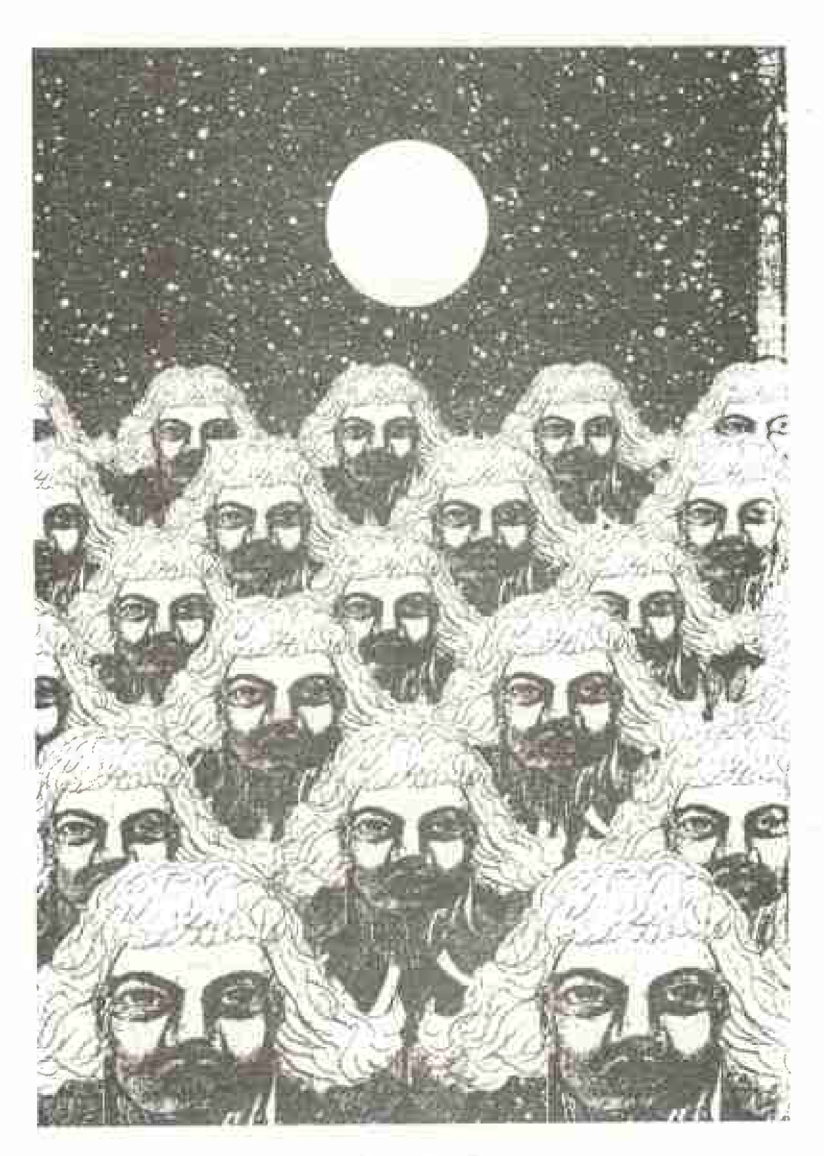
وجهه الأسمر له أثره في نفوسهم كأنه ليس بغريب، يرون هذا الخير يلمع من بريق عينيه يتقدم إليه ثلاث فتيات يُقدمن هذا الإكليل من زهور الأرض يُرددن كلمات فيها البهجة والسعادة فرحين به ليجد أميرة هذا الجبل وأقدمهن تدعوه إلى مكان يُدعى "عين الجبل":

- أهلًا بك أيها الأمير في جبلنا إنها لفرحة وبشرى طيبة لخبر تتويجك أمير أرض كان أدعوك وكهنتك إلى عين الجبل للاحتفال، فوجودكم معنا قد زادنا فرحة وسرورًا.

يتحرك موكب زهير بصحبة أميرة الجبل إلى هذه الأرض المستوية من بلاط صخري أحمر دامٍ، ويجلس جميع الحاضرين بعد جلوسه في دوائر يقدمون لهم ألوان من الطعام والشراب، يتحدثون ويتناقشون في شؤون الجبل كأمر عادى جدا.

العيون تراقبه، عيون الفتيات السمر، ليجد في ذلك غرابة حيث ينظرون إليه نظرات الاحتقار ثم يبتسمون كأنهن المجانين. ينظر بجواره إلى آن ليجدها صامتة تبتسم ابتسامة باردة، وتنظر إلى شيء بعيد.

***



إنه باب خشبي قديم له هذا النور الذي يخرج من أسفله، ويمتد إلى أطراف الأقدام، وخيالات لظلال عناكب تجرى هناك.. غريب.. نقر وخدوش.. أصوات أجراس تدق..وترن صداها في قاع مسامع زهير دونهم، كأنهم قد أصابه الصمم. يشعر برعشة قوية جدًّا وألم شديد لأول مرة. كأن إبرًا فضية تلمع، وتخترق أنامله وأسفل عنقه يستفق مفزوعًا كأنه كان مغشيًّا عليه. الباب هناك بالفعل لكن لا نور أسفله ولا شيء هناك.

يجد زهير جميع الحاضرين ينظرون إليه في غرابة. فيظن أنه الإجهاد من طول الطريق وقلة النوم. يسأل آن بصوت خافت يريد أن يتأكد من عدم هلوسته:

- آن.. إلامَ تنظرين؟

آن:

- ماذا تقصد؟!

زهير:

- كنتِ منذ لحظات تنظرين إلى هذا الباب البعيد؟

آن:

- نعم. ولماذا؟

زهير:

- ألم ترَ هذا النور الغريب أسفله ؟! ألم ترَ هذا العنكبوت؟!

آن تنظر إليه في غرابة:

- لا.. لا شيء مما تقول. أيها الأمير، أأنت بخير؟

يجد أن الأمور تمر عادية جدًا ليتأكد أنه الإرهاق الذي يصيبه دائمًا من قلة النوم،فيكمل حديثه مع آن يتحدثان في حال هؤلاء الفتيات السمراوات، وفي قلبه شعور بعدم الارتياح وشك لا يفهمه في هذا المكان. ويمر الوقت وحوله سكان الجبل كأنهم مستمتعون بوقتهم، حتى تقول له أميرة الجبل:

- أيها الأمير لَمَ لا تحدث أهل الجبل، ليجدوا فيك الأمان فأنت أميرهم الآن.

زهير:

- والله إني أجد فيكم حزنًا لو تنظرون فأريد إصلاحًا لحياتكم هنا، وأنتم تعلمون قوانين الجبال جيدا لكن أشيروا عليٍّ بما أستطيع أن أقدمه لكم.

يصفعه هذا الصمت يتحسس كلمة هناك أو تعليق صغير إنهم كمن سُرقت أرواحهم منهم غير قادرين على الكلام. أشخاصهم قد هربت من هذه الأجساد الصامتة كأنها تكره الكلمات يتوسل في رؤية إحداهن تكسر أغلال اللسان لكن.. لا شيء كأنهن في عذاب مخنوق، مكتوم، لا صِراخ ولا نباح.

يلتفت زهير إلى الكاهن إيلاس والنويان يجدهم في سواد كأنهن غاضبات من تلك الكلمات التي تحدث بها ينظرن إليه كأنهن يأسروهن في استعباد لاحق لهن بالكلام. ليغضب زهير منهن يقول بصوت مرتفع:

– لما لا تتحدثن؟! لكم حق على، وأميركم يأمركن بالكلام.

تتحدث هذه الفتاة التي لم تبلغ الخامسة عشرة والكل صامت في غرابة:

– نحن المنبوذات وليس لنا حق في الكلام. لكن لنا أمرًا واحدًا يهمنا فكلنا اشتياق لرؤية أسرنا، إخوتي، وأبي، وأمي أتمنى أن أراهم ولو لمرة واحدة في العام.

زهير في غضب يتأثر بهذه الفتاة المسكينة:

– أيها النويان لما هذا التشدد معهن أعلم بقوانين المكان. لكن لا شيء يمنع رؤية هؤلاء لأسرهن ولو لمرة في العام.

الكاهن إيلاس ينطق في اختناق:

– أيها الأمير إننا نخاف من مسهم، فقد يصيبنا الظلام أيها الأمير تاريخنا مظلم معهن أخاف أن نضيع كما حدث لبناتنا منذ قديم الزمان.

زهير:

– يا إيلاس من المؤكد أن هناك طرقًا أخرى وحلول مُستطاعة فإن وجدنا؟ فلمَ لا؟ وقد يقلل هذا من أحزانهم، فكفاهم غربة قاسية ألا ترى حالهم؟!

الكاهن إيلاس:

– لك الطاعة أيها الأمير سنبحث معًا على طريقة ما.

زهير يعلم جيدًا أن هناك طرقًا مُمكنة للقاء هؤلاء الفتيات لكن في قلبه خوف من تبعات ما قد يحدث لقوانين هذا الزمن، يُخبرهم ويؤكد:

– يا أهل الجبل عن قريب، سنجد طريقة لرؤية أهليكم دون المساس بأمن الجبال، وإني مجيب لكلماتك يا فتاة.

أهل الجبل السمر مبتسمات، فرحات لشخص هذا الإنسان الغريب، الذي يختلف عن كهنتهم النويان ينظرن له في إعجاب مختلط، بغرابة مخيفة، لشخصه الغريب، ويستمر التحدث حول هذا الأمر بالتحديد، حتى ينتهي هذا الاحتفال بإيقاعات من الرقص والغناء لفتيات في سن العشرين، لهن أصوات ورنين كأمواج البحر الهائج، في صباح شتاء بارد. زهير يتعجب من هذا الجمال الذي قهر وسُجن هكذا في ضيق واختناق لحالهن، يرى طيب وجوههن يقول لنفسه:

– لا يستحققن هذا العذاب.

يودعهن، والنويان يتقدمان معًا للأمام يهمهمون بصوت خفي لا يسمعه، وزهير تسير بجواره آن لا يُعيروا لهن أي اهتمام حتى تأتي تلك الفتاة الصغيرة في صمت، تقبل خده بشفتين باردتين تخبره:

– شكرًا أيها الأمير.

زهير:

– لا تخافي. سأنفذ وعدي لكنَّ، فلا تحزني يا فتاة.

يبتسم زهير هو وآن لفعلها حتى تجري خائفة عائدة مسرعة تهرول إلى أصدقائها من الفتيات يستمرن في حركتهم مع الكهنة، وأميرة الجبل ترشدهم للأمام، ليصلوا إلى هذه البيوت الأسطوانية على حواف صخرية من الجبل، تتجه إلى أسفل وأبوابها تنظر إلى السماء نوافذها مطلة على أطراف الجبل تشاهد حقولًا من الورد الأبيض الذي لا ينتهي يتمايل يصنع هذه النغمات التي تشبه أنين البنات.

الكهنة إلى طريقهم لإحدى بيوت الجبل، والفتيات وآن يصاحبن الأمير زهير في طريقه إلى هذا البيت الأسطواني الجميل، تطلبن خدمته يأمرُهنَّ بالرحيل يُريد أن يخلو بنفسه ليفكر في مجرى الأمور يترل إلى تلك السلالم الخضراء،يصل إلى فتحة الباب، ويدخل وعيناه تتسعان لمشاهدة هذا البناء.

يجد أحد الكهنة يكاد يظهر وراءه، يقف في الظلام خارج الباب يقول:

– السلام لك أيها الأمير لما لا تشاركنا سهرتنا نتحدث ونتشاور في أمور لقاء هذا اليوم؟

زهير:

– اعذرني أيها الكاهن فغدًا سنكمل حديثنا بوجود أميرة الجبل والفتيات.

الكاهن:

- أعتذر يا أمير كان فغدًا اللقاء.

يغلق على نفسه الباب. ينظر إلى أسفل. إلى هذا البيت غريب القوام. شيء لا يفهمه يحدث له، فهناك صمت في المكان.. كأنه لم يغلق الباب بل فتحه على مصراعيه لتمر ذكرياته التي بدأت في التدفق والجريان، كنهر ينهمر لأسفل يخترق وحدته، وعنكبوت أبيض يُخيفه لا يستطيع طرده من عقله فقد نسج خيوطه التي باتت ظاهرة مطبوعة على عينه، فتدمع من هذه الحرقة المُفرطة يسقط على ركبتيه كأن جبلًا ثقيلًا فوقه يُحطمه وهلاوس تتصاعد أمامه تتجسد في حبيبته التي يسمع صوتها تناديه من قلب البيت.

يتذكر أهله والأصحاب يتجسدون لكن هناك أنينًا وأحزانًا لا يفهم معناها يجري إلى هذه المرآة- ينظر لنفسه كأنه ملطخ بدماء يصفع نفسه. يعلم أنه قد أصابه الهذيان، فيجلس على الأرض يتنفس الصعداء، وبروية تنتظم إيقاعات ضربات قلبه ليهدأ ويعود كما كان لكن نداءً هناك ما زال يناديه لأسفل،في آخر حجرة من حجرات هذا البيت، يظن أن أحدًا يحدثه لكن لا شيء هناك، ويطوف البيت هنا وهناك لا يعلم على ما يبحث حتى ينظر من تلك النافذة ليجد هذه الأزهار البيضاء تنير المكان كنجوم المساء.

الفتاة

قناديل متألقة في روعة الظلام،تنظر كلها إليه في اهتمام فيختلط الخوف بحزنه حتى يلتفت إلى الداخل، ينظر إلى صندوق خشبي على منضدة سوداء قاتمة، لا تعكس نورا كأنها متفحمة. يأخذه في اهتمام، ويبدو كان أحد قد تركه له ينظر يريد فتحه ومعرفة محتواه، خائفًا مما قد يجده إنه محفورًا عليه نقوشًا لأربعة اتجاهات ففي القلب جبل صخري يختلط بألياف خشب الغطاء، ويُشير إلى أربعة جبال. جبلين أسودين، وآخرين من حجر ماسي شفاف، كأنهما مخفيان غير مرئيين.

يتحسسه بيديه ليجد شعورًا بالمتعة لدقة الصنع وعظمته إنه قد نُقش في إتقان يلتفت حوله مُمسكًا بالصندوق يشعر بسر خفي داخله، حتى يسمع مناديًا يطرق الباب على استحياء يتقدم والصندوق خلفه بيديه يفتح الباب ليجد نفس الفتاة بمفردها دون صحبة أحد تستأذنه خائفة بالدخول لتقديم الطعام له. يقول لها:

- الشكر لأهل الجبل.

الفتاة في غرابة تتحدث كأنها تعلم ما في حوزته:

- إنه لك وإليك أتمنى لك السلامة يا من ملكت الصندوق صندوق هذا الزمان.

تتركه مسرعة كأنها كانت تريد إخباره برسالة ما. يغلق الباب، حتى ينزل إلى أسفل، يفكر في كلماتها وهو ينظر إلى الصندوق، فيفتحه ليجد ورقة جلدية عليها كتابات قديمة وخوط ورموز بسيطة كخريطة لأرض هذا الزمان ممسكًا هذا الجلد السميك يحاول فهم إشاراته يسمع صيحات تأتي من خارج نافذته تهز أركان بيته، فيهرول مسرعًا إلى النافذة، ليجد هذه الزهور تتلوى في ألم شديد كأنها علمت بما قد كشفه يصيبه التوتر والخوف من المكان يريد سؤال الفتاة عمّا ملكه وكشف سره.

يذهب خارج البيت مسرعًا ووجهه مثقل بلقائها يبحث عنها إلى هذا الفراغ ينطلق ويهيم هنا وهناك، ولا شيء غير السكون المخيف.. إنه لأمر غريب يتقدم نحو ظلام قد اختلط بألوان المكان عند بعض الأشجار الكثيفة، ليجد الفتاة تقف متخفية كأنها تنتظر قدومه إليها، تخاف أن يراها أحد.



بالرغم من سواد وجهها يراها زهير كأنها بارزة مختلفة عن ظلام المشهد. إنها نفس الفتاة التي قدمت له الطعام منذ قليل، تنظر إليه تريد إخباره شيئًا ما، ويتقدم زهير نحوها، يتملكه الخوف من غرابتها وما سوف تخبره به قدماه الهزيلتان تدفعانه إليها، حتى يرى بريق عينيها الجميلتان. جميلة بحق لا نفاق. تنظر إليه، تخبره:

- أيها الأمير خذ الصندوق وأرحل من هنا،وابحث عن الأركان، فأنت الآن في الظلام مخدوع تظن أنك في أرض خيرٍ احذرهم النويان، إنهم كاذبون خائنون من جعلوك أميرهم. كلنا خيالات إلا أنت وفتاتك آن، التي سجنوها داخل أعماق هذا المكان، وقد نساها النسيان في أرض الظلام.

اخرجوا سريعًا من هنا قبل أن يسجنوكم إلى الأمد، كمثل ما فعلوا بنا نحن الفتيات لقد أوهموكم بكلامٍ مريض، فلا أسود ولا أبيض إنها نِتاج زرعهم الخبيث في عقولكم، والذي يكاد يمتد إلى قلوبكم فتنتهوا كَما إنتهينا. ارحلوا ما دام لديكم فرصة الهروب.

زهير:

- كيف ؟! كيف هذا الكلام؟ أيمكنني إنقاذ آن؟

الفتاة:

- نعم يمكنك إنقاذها، إنها من أرض الحقيقة أرض الجبلين اذهبا ناحية هذا النجم في السماء، ومعك الصندوق سيرشدك إلى طريق أرضها فهي

مفقودة منذ زمن بعيد لكنها لا تعي ذلك اعلم أنهم شياطين لِئام، وإن أمسكوا بكم فقد ضِعتم ولا رجعة لكم أبدًا.

زهير:

– وأنتم لَمِ لا تنقذون أنفسكم؟

الفتاة:

– أيها الرجل الكريم إنك لم تفهم بعد، إننا حقيقة لا نستطيع الهرب لقد إنتهى أمرنا منذ زمن بعيد فاغتنموا هذه الفرصة قبل شروق شمسهم شمس ظلامهم.

مسرعًا يتركها، يعلم أن كلماتها صادقة جدًّا، وبالرغم من شعوره بغرابتهم وكذبهم وقت أن رآهم، لم يُفكر قط أن الأمور ستؤول إلى ذلك يتحرك نحو بيت النويان، تعتلى وجهه تلك النظرة الصارمة، يُفكر بجدية كيف سيخرج آن من هناك دون كشف وفهم معرفته بحقيقتهم الكاذبة يصل إلى باب البيت، يطرقها ليفتح له الكاهن إيلاس ووجهه الكاذب يملؤه الغليان، والدونية، ونظرات الاستعباد ينظر إليه كأنه يرى شيطان كريه يقول وكأن كلامه السم يتساقط من فمه:

– أهلًا بك يا أمير كان، تفضل عندنا شاركنا جلستنا.

يتحكم زهير في انفعالاته، يتكلم كأن لا شيء قد حدث يقول:

– دمت طيبًا أيها الكاهن إيلاس، لكنى أريد التحدث مع الفتاة آن في أمر ما أخبرها أن أميرها يريدها في الحال.

بارد الوجه كأصنام الجاهلية ولكن في قلبه هذا البركان من الغضب والخوف يذهب الكاهن، ينادي آن التي تأتي إليه في زيها الجميل المحاط بروعة جمالها وطيب طلتها. تقول:

- أهلًا بك أيها الأمير كلي آذان مصغية، مجيبة بما تأمرني.

زهير يمسك يدها الصغيرة بإيماءة تفهمها، كأنه يخبرها:

- لنذهب بعيدًا عن هنا.

وبالفعل تفهمه الفتاة دون صعوبة تعلم أنه لا يريد لأحد سماع كلماته سواها يبتعدون شيئًا فشيئًا إلى الأمام يخبرها بصوت خافت:

- انتظري حتى نبتعد لأخبركِ بشيء مهم.

زهير معها، وهو يعلم بنظرات إيلاس التي ترقبه منذ لحظة ابتعادهما عن المكان، يريد أن يعرف البيان يلتفت إليه ببطء ليجده عند الباب وظلام هناك، يخرج من خلفه كضوء شديد التوهج في ليلة مظلمة، والعين كأنها لم تَطْرُف في شرٍّ غليظ أحاط وجهه، ويستمران في المسير كأنهم يتسامرون في الحديث حتى ابتعدا عن الأنظار يخبرها:

- احذري الكلمات، إنهم يكادون ينتهون منا ويسرقون أرواحنا منذ زمن. ونحن الآن في الظلام، ولم يتبقَّ لنا إلا القليل من الوقت، لنهرب ونذهب بعيدًا عن هذا المكان.

آن غارقة في ظلامها تحاول رده عمّا يقول:

- لكن..

يسبق كلماتها:

- أريد أن أسألكِ عن شيء مهم. ألم ترَ غرابة فيهم؟

آن:

- نعم، إنهم غرباء يحملون الأسرار،يعذبون ويقتلون من يشاؤون اختياره، ودائمًا ما أرى فيهم غضب وشر خبيث يُخيفني ويأسرني كأني من عبيدهن، وحتى الآن أرى حقيقتي في أحلام لأرض بعيدة لا أتذكرها، تبعث في الشك دائمًا لواقعي هذا.

زهير:

- نعم، فأنا متأكد أن أهلك ينتظرون عودتك منذ زمن انتبهي هذا ما يفعلونه، يريدون أَسرى وأَسرك حتى نضيع وننتهي عن حقيقتنا.. ألا تثقين بي يا آن؟

آن:

- نعم أيها الأمير، أثق بك وفي كلماتك. فكفاني حسن معاملتك وطيبها

زهير:

- أسرعي لنذهب بعيدًا عن هنا، فمن أيقظني وفَك أسرى هذه الفتاة المسكينة، التي أخبرتني أننا لم يتبقّ لنا سوى القليل.

آن:

– انتظر.. ألم نأخذ متاعًا معنا يكفينا طريقنا أسفل الجبل.

زهير:

– لا وقت لدينا لذلك، فأخاف أن يغمرنا الظلام، وليس معي سوى هذا الصندوق الذي سيرشدنا إلى طريقنا إلى الأمان.

يهمون في الرحيل، ويُسرعون من خطوات الأقدام، يقتفوا أثرالنجم الذي يُرشدهم في ظلام هذا الطريق، ويلتفتون خلفهم ليروا الجبل بكل ما فيه ينظر إليهم، ويعلم خبر رحيلهم وهروبهم الأزهار تيجانها تنظر إلى اتجاه مسيرهم، إلى الأسفل، والأغصان مضطربة تميل معهم، يريدون الذهاب وترك المكان. يتمايلون كأنهن النادبات يندبن حزنًا على رحيلهنّ.

***

يقترب من الحقيقة

يستمرون في الحركة مُبتعدين عن مفارق طرقات الجبل، مختبئين بين جذوع الأشجار والنباتات الكثيفة، خيفة من أن يجدهم أحدًا من النويان. زهير يريد فتح الصندوق ليدله على وجهته لكن كل ما يجول بخاطره، الذهاب بعيدًا بآن عن هذا المكان ينظر إلى النجم مُرشده ونوره الوحيد، يراه يومض وينطفئ، والسماء ألوانها تعود كسابق عهدها، ليتزايد وميض ما فيها من نجوم، كأنهم كانوا نِيامًا ثم استيقظوا من كابوسٍ طويل. فيختفي دليلهم شيئًا حتى ينتهي ببطء شديد يترلون إلى أطراف الجبل فرحين، إلى نورًا صباحه أكيد لكن هناك صوت كصوت الحريق، صراخ كطقطقة اللهب العنيد هذا الإيقاع السريع والمخيف الذي سيطر على فضائهم في المكان يُخبر زهير أن هناك غضبًا شديدًا. وأن النويان قد علموا بهروبهم من جبل الظلام.

يتوقفون عن السير وآن في فزعٍ وخوفٍ، تمسك برأسها ويديها، تحاول إسكات هذا الصوت المخيف. تخبر زهير:

- إنني خائفة يا أمير لقد كشفوا أمرنا، وأخاف أن يقبضوا علينا ويقتلونا أو يعذبونا.

زهير:

- لا.. لا تخافي يا آن، فأنا معك سأحميك منهم أختبئي هنا وسأذهب أولا أتابع الطريق ثم سنذهب سريعًا.

يتحرك زهير على حافة الجبل متخفيًا يُتابع الطريق، ليتأكد بأن لا شيء موجود، إنها فقط صراخاتهم من أعلى الجبل يجري مسرعًا عائدًا إلى آن وقد تأخر عليها، يجدها غارقة في دموعها تظن أنه قد حاصره النويان تجري عليه ترتمي بين يديه كأنها كادت تغرق وقد جاءها طوق النجاة، ويَعبرون الطريق في حذر، يمرون في سلام ويدخلوا غابتهم المُحرمة، وآن لا تزال في رعب شديد، يطمئنها زهير:

- لا تخافي، إننا في الغابة البعيدة، وأظن أننا الآن في أرض طيبة، ومكان أمين.

يطمئنها مرارًا وتكرارًا، ويتذكر لحظة دخوله إلى هذا الزمن، ويرى مرة أخرى جمال الألوان في حقيقة صادقة أمام عينيه، والجبال الثلاثة خلفه مغطاة بالغيوم السوداء كأن الشر مسكون هناك سوى شجرة الجبل التي في الوسط يخاف زهير أن تكون كذبًا كمثل باقي الجبال يريد سؤالها والتحدث معها فيما أخبرته، ويخاف أن يكون ما قالت هُراء لكن يفضل الاستمرار في المسير مبتعدين عن الجبال حتى أرهقهما الطريق يجلسون على

صخرة رخامية خضراء، يتفاجأ بآن التي تذكرت بعض من حياها كأن ذاكرةً غائبة قد عادت إليه فور الابتعاد تخبره والدموع في عينيها:

- أيها الأمير إنني أتذكر كل شئ آآآآآآه ما هذه السعادة مشتاقة لوجه أمي وأبي كيف حالهم؟ مشتاقة لأرضي لقد كنت غائبة لسنوات!

يبتسم زهير لها فرحًا بعودة ذاكرهًا يخبرها يكاد يموت خوفًا مما ستخبره إياه:

- آن أخبريني ولا تخدعيني أشجرة الجبل حق أم هي البهتان؟

- آن لا لا تخف أيها الأمير إنها حقيقية كما أنت تراني، وسنذهب إليها فور اقترابنا، فما نخاف منه قد رحل بعيدًا خلفنا.

يهتاج زهير في سعادة غامرة يخبرها:

- كم إنني محظوظ برؤيتك يا آن.

آن:

- وأنا كذلك فرحة ومديونة لك أيها الأمير، فبدونك كنت ما زلت هناك ضائعًة مع النسيان.

زهير يبتسم:

- لست بأمير إنها كذبة النويان.

- آن: لا والله ستظل أميري في أي أرض تكون.

يمر الزمن عليهما يبحثان عن مأوى، وطعام يأكلانه ليعينهما على استكمال الطريق، وينجح زهير وآن في جمع تلك الثمار السميكة القوام، يأكلانها، ورائحة طين الأرض فيها كعطر أميرة جميلة تتزين بها.

إنه طريق طويل يبعدهما عن النويان لكن زهير منهك يسقط على الأرض وعيناه تحترقان من ألم شديد، يدفع بأنامله وخدش جفونه الحمراء لتقليل ومداواة هذه الوخزات الإبرية، كأن أرجلًا لعنكبوت كبير قد وطئت على سطح عينه يتلوى على الأرض من آلامها الجنونية غير قادر على تحمل عذاب هذا العنكبوت الذي يُطارده في السراء والضراء لكن عذابه دون جدوى لا يرحمه، يصرخ ينادي بأنه لا يحتمل هذه المعاناة والألم الذي لا يُطاق، يهلوس:

- يا ليتني قتلت العنكبوت! أراه.. إنه أمام البيت يتحرك لكنني خائف.. آآآآه حبيبتي! أين أنتِ تداويني مما أنا فيه.

آن بجواره في هلع وخوف تحاول معرفة سبب الألم تناديه:

- ماذا أصابك يا زهير؟

زهير كمن أصابه الهذيان:

- ابعدي عني هذا العنكبوت قطعي انزعي خيوطه إنها تمزقني.. آآآآآه. ما هذه الدماء..لاااا. ابتعدوا. لم أقتل أحدًا.

آن:

- من قتلت؟!

زهير يردد:

- لم أقتل أحدًا؟ لم أقتل أحدًا؟ إنه العنكبوت.

آن خائفة مما سمعت، تمْسِك بذراع زهير وتبلل وجهه بالماء ليستفيق تدريجيًّا ويفتح جفونه بصعوبة، ينظر إليها وعيناه حمراوان داميتان كحريق قد نشب فيها منذ لحظات. تخبره:

- لقد كنت تهذي أيها الأمير وتقول بكلمات لا أفهمها ما هذا العنكبوت؟ ومن قتلت؟

زهير:

- قتلت! ما الذي تقولينه أقلت هذا؟!

آن:

- نعم. كنت خائفًا تردد بأنك لم تقتل أحدًا.

زهير:

- لا تخافي إنه فقط هذا الإرهاق ونوبة كانت تأتيني منذ زمن قديم.

آن:

- وما هذا العنكبوت؟

زهير:

- إنه عنكبوت أبيض بغيض، أراه دائمًا معلقًا ينشر خيوطه ببيت في زمن لا تعرفي عنه شيء لم أكترث لوجوده، ولا أعلم لماذا يطاردني في أحلامي ويقظتي حتى الآن لقد أصبح كشيء يُصاحبني، كأنه مسجون داخل عقلي.. لا تخافي يا آن إنه مجرد خيال وأحلام لي من الماضي.

آن:

- لَمَ لا تحاول أن تنسى هذا الزمن وحياتك التي أرى فيها أحزانًا مرسومة على وجهك.

زهير:

- يا آن الأمر ليس بهذه البساطة، اتركي هذا الأمر ودعينا نتحرك قبل مغيب الشمس.

***

العنكبوت (6)

أنا الذي بين الحيارى في الهوان بين الحيارى اختنق الكلام صوتي ضاع كسهم طايش في زمن عجيب، شايف الممر إنه طويل، إنه بعيد. كيف الرجوع؟ وبقايا بقت في كل ركن في زمن غريب نفسي أعود لحضن ضايع، لحضن فايت دي الدموع. عنكبوت مغرور مبرحمش. تزيد قسوته. يصنع خيوطه تحت الجلود عايز يسد سكتك.

يمران على سهول خضراء ممدودة، ويأخذهما الوقت سارحين في ثرثرة حمقاء، يغلب عليهما روح الفكاهة، وزهير يضحك معها يخبرها بتلك النكات، يمزح وكأنه لا يعير همه وما فاته أي اهتمام حتى يصلا إلى ضفاف نهر جارى. إنه المكان الذي سقط وأتى منه إلى هذا الزمان. يبتسم إليها دون إخبارها بشيء، يتعجب لما فاته من أزمان يخبرها:

- لقد كنت هنا من قبل وبنيت كوخًا خشبيًّا في الجوار دعينا نبحث عنه، لنسترح ونستقوَ براحته لبقية رحلتنا.

لقد كان في جعبتهم بعض من الفطر، وثمار طيبة من خير هذه الأرض، يجدان الكوخ بعد وقت قصير من البحث، ويدخلان يستريحان للاستعداد

لاستكمال الطريق يحل عليهما سلام جميل، يأكلان طعامهما ويتحدثان والأمان يجمعهما.

يُحدثها ويرى فيها حبيبته، تذكره بها وبحديثه معها ليتسلق هذا الحزن إلى قلبه ونبضات قلبه تتصارع تستنجد بذكرها وخيال يواسيه يفكر كيف ستكون عند عودتها إن خياله محدود فيها متفكك الحدود. تستمع إليه آن محبة حديثه، حتى تخبره:

– دعني أرَ هذا الصندوق لكي يطمئن قلبي أننا على المسار الصحيح.

زهير:

– بالطبع تفضلي.

تتأكد آن أنهما على المسار الصحيح واقترابهما من وجهتهما فهناك هذان الجبلان المخفيان عن العيون تتذكر طريقها وتلك المسارات، فهذه أرضها تعلم خباياها جيدًا. تقول:

– اطمئن أيها الأمير إنني عليمة بتلك الطرقات بداية من موقعنا، وهذا الجبل ناحية الجنوب يشير إلى أرض قومي. فنحن على المسار الصحيح.

أراحت كلماتها قلب زهير الذي ينتظر ذهابه إلى وسط هذا الزمان عند هذه الشجرة المقدسة يأخذهم الوقت إلى أن أصبحوا نِيام كل منهما سارح في أحلامه إلى طرقات مختلفة وغايات باتت قريبة يستيقظ زهير على أصوات أقدام تتحرك وتتمادى في الاقتراب نحو الباب، ينظر زهير ليرى خيالات لأقدام تتوارى خلفه،ويُصعق زهير من هذا الكاهن إيلاس وكهنته

يحطموا باب الكوخ. وبريق الغضب والانتقام في أعينهم يمسكون بآن من يديها ليحكموا قبضتهم فيصرخ زهير قائمًا للانتقام.

يستيقظ من هذا الكابوس الخانق ليجد أن لا شيء حوله وآن ترتعش مفزوعة بجواره تمسك بيديها الصغيرة كتفه تحاول تهدئته تقول له:

– ماذا هناك يا أمير؟

زهير:

– اعذريني إنه كابوس كريه رأيتهم يدخلون علينا الكوخ فظننت أننا إنتينا.

آن:

– من هم؟

زهير:

– إيلاس الكاهن الخبيث.

آن:

– لا عليك، إننا في أمان أيها الأمير.

ينظر زهير لوجهها وشعرها المنساب. عيناها تترقرقان رقة وعذوبة تملأ عينيه بالسلام والأمان ليتكئ على يديه يجلس وفي قلبه أملًا فيما هو قادم. يديها التي تُذكره بيد حبيبته تقدم له الماء ليشرب ويستعيد كامل وعيه. يخبرها:

– لا يجب علينا الانتظار أكثر من ذلك، فلنتابع الطريق ونأخذ ما تبقى لنا من طعامٍ وماء.

يتحركان ناحية النهر كما هو مرسوم في المخطوط الجلدي، ويتبعان النهر المتحرك، يستمتعان بخرير الماء وهديره المتلاطم بصخوره الندية الخضراء نهر سحيق ممتد إلى الأسفل يتحرك دون هوادة، وهما بمحاذاته لا يخرجان عن المسار، وبالرغم من الإرهاق والتعب الشديد لوعورة الطريق كأن هذا المكان لم يخلق لذلك حتى يمر مرة أخرى على مسقط هذا الزمن. يخبر آن دون إخبارها السبب:

– توقفي لبرهة صغيرة يا آن.

إنه يفكر في الرحيل عن هذا الزمن والعودة إلى الممر، ولكن تسأله نفسه. لأين يا زهير؟ ألزمن آخر؟ أم لمكان بعيد به هذا العناد؟ أم لشيء غير أكيد؟ ويعتذر لها عن توقفه، ويستكملان هذا الطريق، وآن تتعرف على معالم الطريق حتى يصلا لمكان معلوم لآن إنه كهف ظاهر من بعيد مشيرًا إليه في المخطوط، فوقه جبله السعيد جبل الشجرة المقدسة التي وعدته به آن، ومؤكدة على زهير تقول:

– انتظر يا أمير، فإني أعرف جيدًا هذا الطريق إنها فجوة التفرعين "مركز تفرع الجبلين"، جبل الجنوب وجبل الشّمال، وهذه هي شجرتنا المقدسة التي تعلو جبل الظلام والتي ستسترجع فيها حبيبتك. فلقد اقتربت كثيرًا إلى غايتك وأنا كذلك.

آن يغلب عليها السعادة والابتسام لاقترابها من أرضها، وزهير يخبرها على استحياء لا يريد مضايقتها بطلبه المخنوق، فيعلم جيدًا مدى اشتياقها لأهلها كذلك يسألها عن أرضها، وإمكانية صعود الجبل وإتمام طقوس عودة زوجته. تخبره:

- نعم..سنصعد الجبل أولًا فهو الأقرب لنا، وسنقيم لك طقوس شجرة الزمان، وبعدها علينا المرور إلى هذا النفق ناحية الجنوب حتى نصل إلى قومي.

يصيح كل منهما سعادة لم يشعرا بها منذ زمن بعيد، يخبرها أنها إن كانت على حق فهذا سيكون أسعد وقت وأنه يدين لها بحياته. تقول له أن: أيها الأمير، لا تخف فأنا على حق، لا تخف هذه حقيقة المكان وهذا الزمان في أرض كان يتركان باب الكهف "نفق التفرعان" ليصعدا فوق جبل الظلام بطرقاته الوعرة القاسية، جمال أسود يُحيط بهم من كل جانب، وهما يسيران بجوار بعضهما البعض كنجمين ساطعين في زبد الظلام برحيق الأسود المكتوم. تخبره:

- أيها الأمير، إنني خائفة فعلينا أن نغطي أنفسنا بلون الأرض حتى لا يرانا أي شر بعيد أو حاقد خائن من أهل الظلام.

يلطخان جسديهما وملابسهما بالسواد، من أوراق الشجر والنباتات وأرض المكان حتى تاها وأصبحا جزءًا من هذا الأسود الصامت يتجهان وأمامهما الشجرة الغارقة في قلب السماء يصعدان إلى قمة الجبل وزمنهم ممدود، كلما صعدا ومر عليهما الزمن يشعران كأنه غير موجود حتى يمر

زهير وآن على موضع ما غرسا من بذور، يجد في كل حفرة صمت شديد يخبره مناديًا من الأعماق في صوت مسموع تقول الحفرة:

– انظر إلينا جيدًا، ألا تتذكر العنكبوت؟

آن تصرخ في زهير:

– توقف يا أمير لا تنصت إليهم فهذا عمل النويان إن ذلك غرسهم الخبيث، يريدون شدك إلى ظلامهم، فلا تتشتت عن الطريق.

يستعيد زهير رشده،كأن أحدًا كاد يخنقه ويدفنه أسفل غرسهم في التراب ليتذكر حبيبته، وتدمع عيناه من شتاته عنها، يُعاتب نفسه، ولا يغفو ببصره عن هذه الشجرة أبدًا تسير خلفه آن مقتربة منه، خائفة عليه، تحسه باستمرار على إبقاء بصره على غايته طوال الطريق. حتى تقول آن:

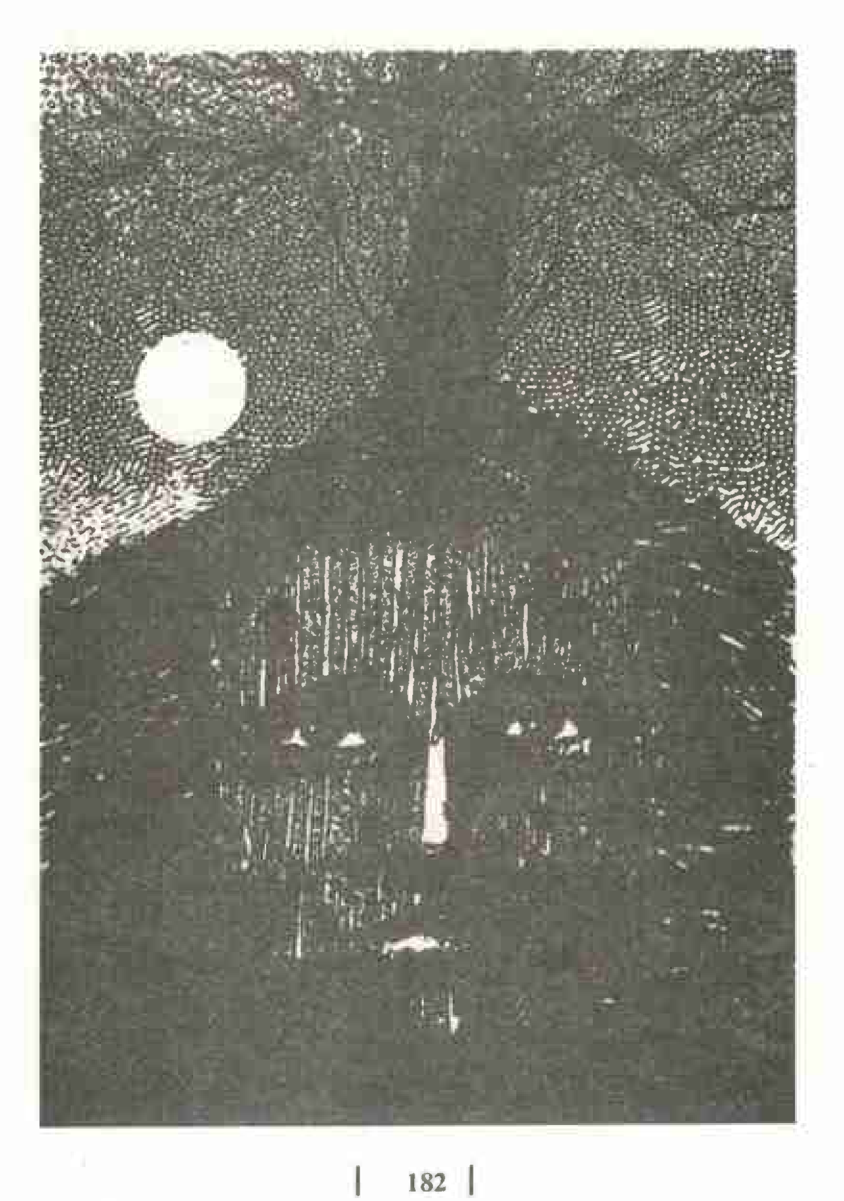
– لقد حان الوقت، فأنت الآن أمام شجرتك، شجرة الجبل المقدسة، احذر ولا تفلت قلبك وبصرك عنها مهما يكن، واذكر حبيبتك بكل ما أوتيت من قوة خلف جدار عينك، حتى ترى فيها ملامحها وكل ما فيها من صفات، كأنها أصبحت أمامك تكاد تلامسها. وإياك أن تفقد صورتها.

الليل شديد، والصمت يصفع الوجوه بصقيع موجع لا يرحم، وزهير يتوسّد على أمله في عودتها إليه يقف أمامها يشعر بنبض قلبه يتحرك بداخله إلى جفونه التي ترتعش، وتدمع، وتنهمر على وجهه الأسمر، مياه رطبة تثلج هذا الوجه المفتقد رؤية حبيبته الغائبة حتى يشعر بأنه ارتبط بالمكان، وجسده جزءًا لا يتجزأ من هذه الشجرة العظيمة. غرابة الشعور

التي تقسم قلبه وتخبره باقترابها إنه نفس الإحساس الذي ما دام يشعر به بجوارها في زمنه القديم، ليأتي هذا والنسيم الدافء يتحرك ويُكسر صقيع المشهد همهمات من شفتيه، وزفرات طويلة كأن الألم يتسرب من قلبه المُشتاق، لينسى كل ما فات من آلام.

ينظر إلى السماء على امتداد الشجرة، يشاهد سقوط السحاب في هيئة قطرات ماسية شفافة، تتساقط حول المكان كأنها دموع حبيبته التي علمت بوجوده قريبًا منها هذه اللحظة كأنها أنارت الجبل، وقد أغرقته في هذا البياض، كأن القمر كاد يلامس الأرض باستدارته ليحجب ظلام السماء. فيرى وجهها، وتبتسم له كأنها تخبره بوجودها. لكن.. أين؟ لا يعلم..

***



فجوة الجنوب

تضع آن يديها على كتفه، تخبره:

- إنك أتممت الميثاق، وصنعت هذا الرِباط بينك وبين المكان، وليس لك سوى الإنتظار أو البحث عنها. فإنها موجودة الأن في أرض كان باسم " النورشان "، تنتظر عودتك كما أنت باحث عنها في اشتياق، فهي تعلم بوجودك كما تعلم أنت بوجودها. هيا بنا نسرع إلى أسفل الجبل إلى فجوة الجنوب فلعلك تجدها هناك في إحدى الأركان.

زهير ليس كسابق عهده إنه الأمل الذي أعطاه حياة جديدة في زمن غريب، بعد أن هدمته الأحزان وكسرات الفقدان يتحركان عائدان، ويشكرها زهير مرارًا كثرثرة طفل صغير، تخبره بالتوقف عن شكرها، فهذا أمر هين لما قدمه لها. تحدثه عن أرضها، بطيبها، وخيراتها، وحسن أهلها حتى يصلو إلى هذا الكهف، الذي يتفرع منه النفقان" نفق الجنوب ونفق الشمال" يسأل زهير نفسه أهي موجودة هنا أم هناك. محتارًا حتى يتخذ قراره ليَتّبع آن إلى أرضها أولًا، لعله يجدها بين أهلها.

يداخلان هذه الفجوة التي يتخللها أشعة الشمس في فراغات أسطوانية، تمتد على هذه الجدران المصقولة، وسقفها المقعر، ونقوش محفورة قد ربطت ذاكرته بممر الزمان "ممر بيت السيد الخولي"، فهي في تقارب كبير في البناء، تحمل رموزًا متشابهة، لكن بصورٍ مُختلفة، تجعل زهير يشعر بالغرابة. يسأل آن:

– ما معنى هذه الرموز يا آن؟

آن تنظر إليه كما رأته أول مرة، وتقول:

– إنها نقوش لرموز تخص أجدادنا في أرض كان، تحكي أسطورة قديمة تقول إن هناك سبع أراضٍ لسبعة أزمان فيقال إن هناك حيوات أخرى بيننا لا نعلم مداخلها ولم يكتشفها أحد حتى الآن، والله أيها الأمير لا أرى فيها أسطورة أو خرافة لأنني أظنك لست من هذا المكان، وشخصك غير أي إنسان.

يبتسم زهير لها:

– دعينا مما فات، ولنفكر فيما هو آتٍ.

ويستمران في رحلتهما داخل فجوة الجنوب، التي تأخذهما بغرابة إلى الأسفل كأن أرضها في الأعماق، لا تريد لأحد كشفها سوى أهلِها، ويمر الوقت، وكلما ابتعدا عن بداية النفق يجدان المكان يختنق ويضيق. يغرق في الظلام فهو طريق عنيد يسألها زهير:

– لِمَ صعوبة هذا النفق يا آن؟

آن:

- بناه أجدادي الذين يعلمون جيدًا ظلم أهل النويان، ويخافون غدرهم وظلامهم، ولذلك تجده طريق صعب العبور، أغلبه ظلام. يدفع الغريب إلى الابتعاد.

تزداد قتامة المكان، وصمت يُخفي الحواس، فلا سمع ولا بصر حتى روائح المكان قد اختفت إنهم في مكان أمين، خفي عن العيون لا يشعر بشيء سوى يديها الممسكة به بإحكام خائفين من أن يتوها في الظلام. يُحدثها لكسر هذا الخوف، وهي تكاد تسمع صوته كالهمهمات في نفقٍ كبحرٍ سحيق، أغرقه ظلامه وقاعه الأسود حتى طال الطريق، ومر الزمن إلى مكان بعيد، ليشاهدا هذا التوهج الأبيض، القادم من أعماق نهاية النفق، يُخبرهم أنه باب الوصول، إلى جبل الحقيقة "جبل الجنوب" تتسارع خطواتهم وتعود حواسهم، لتكشف تلك الهمسات وأصوات قادمة تَزيد، كأنه الغريق، الذي نجا من غرقٍ أكيد، حتى يصلوا إلى نهاية الطريق، دون أذى أو حريق في الأعين، كان من المنتظر أن يكون أكيدًا.

من الظلام إلى النور، فالعين فرحة تتلألأ سعادة بطريقة تثير الدهشة. كأنهم لم يروا ظلام من قبل، وأن الحقائق باتت قريبة، وزهير ينسى وجوده وكيانه الدنيوي القديم، سوى حبيبته التي اقترب لقاؤها، وكل شيء واقعي تمامًا يتراءى له كما ينظر إلى نفسه في المرآة. وفي ظل هذه اللحظة الجميلة كأن السلام قد غمرهم، لكن.. زهير يشعر بثقل كبير كأن حياته ممدودة خالد فيها، وقد مَرَّ عليه ألف عام، ينظر ويدمع دون الدموع كنسيم

مخنوق يخرج من جوفه الفارغ، حتى تشد يده آن جرى معه إلى الأمام وحولهما طبيعة أرض كان، حتى تفلت يديها منه، تقفز وتجري كطفلة صغيرة فرحة بيوم جميل إنها أرض متروكة لحالها كثيفة، لا خبيثًا متجملًا ولا نفاق يحطم الأركان إنه الحق بديعه يملأ المكان يستمران في الجري وزهير مبتسم وسعيد لحالها حتى تصرخ إلى بيوت هناك تعلمها ليصيح أهلها والعابرون باسمها قائلين: عادت آن، عادت آن.

صيحات فرح عارمة وقبلات وأحضان سعادة حميمية دافئة تعم الجميع بعد طول الغياب وألم الفقدان إنهم شعب مترابط القوام كحلقات الوصال، التي تفرقت وف–رِط أجزائها منذ فقدان فتاتهم آن الآن.. تكتمل وحدتهم من جديد بعد عودتها والأرض تتغير بغرابة إلى الأجمل إلى الأسعد. وأناشيد الفرحة وتسابيح العودة يرتفع رنينها في الفضاء.

زهير يقف بعيدًا غريبًا عنهم. ينظرون له في ابتسام لوجهه الأسمر البشوش، وكل الفتيات يراقبوه في إعجاب إنه الغريب الذي أعاد بسمتهم وفتاتهم الغائبة إلى أرضها يرون فيه حسن الصفات وطيب الأخلاق يرحبون به ويقدمون له من كل طيب يهدوه هذا البيت على ضفاف نهر هذا الزمان بيت جميل من شجرة طيبة كبيرة لها ألوان وألوان. على أطراف أرض كان يستأذنهم ويودع آن التي تذهب مع أهلها فيسترح لوقت طويل في هذا البيت الجديد، ومن حين لآخر تمر عليه آن ومعها بعض من سكان أرضها يتسامرون ويتحدثون حول ما فاتهم مع الكهنة النويان وكيف

استطاعوا الهرب منهم والاستدلال عن أرض الجنوب،ويخبرهم دائمًا بحبيبته التي يبحث عنها، في فرصة في أن يستدلوا عليها في المكان.

زهير يتعجب لقوم آن إنهم في نشاط إجماعي دائم فينغمس سريعًا في تيارامم وعاداهم وتقاليدهم مترابطون جدًّا يختلفون تمامًا عن مجتمعه القديم الذي قلما استمتعوا بحياة أفضل، كأنهم أقوام متغطرسة متكبرة بعيدة عن هذا القوام المرصوص والمُحكم.

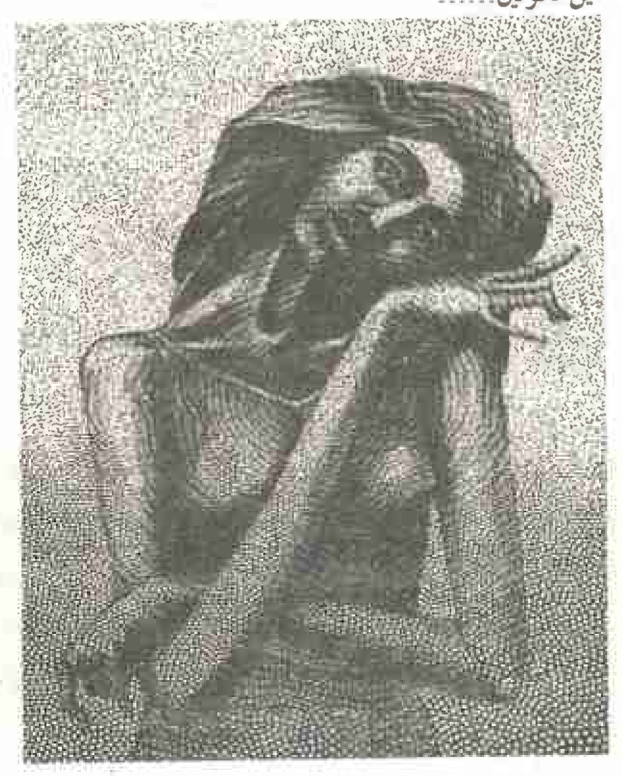
صباح ليوم جديد. زقزقة الطيور، وغرير الماء القادم من بعيد، يُداعب حفيف الأشجار بأغصانها المتمايلة، كأن الأرض تغني فوق أشجارها تلقى الأشعار على مسامع الجميع فيهم زهير مستجيب لنداءات الجمال. يذهب إلى ضفة النهر التي ازادت الأرض من الجنان يخلع حذاءه ويمد قدمه داخل مجرى الماء، يتكئ على صخرة ويتذكر طفولته وأول مرة قد استمتع بنزوله الماء إنها لحظات محفورة في القلب. لتأخذه في البعيد إلى عين حبيبته التي يراها تنظر إليه.

شيء مؤلم في المدى في أعماقه يتحرك تحت الجلود بين ثنايا جسده كخيوط العنكبوت، التي تتشبث بضحيتها حتى يُدركها الموت والفناء ليُزيد شعوره اشتياقًا بعد أن علم بوجودها هنا أو هناك. إنه الأمل والنور الواحد الذي يجعلنا نحيا ونستمر في طرقات طويلة وتغيره بالرغم أننا نعرف نهايتها جيدًّا. يسأل نفسه:

– أين أنتِ يا هاجر؟ أعطني إشارة. أي شيء.. أي شيء.. يا حبيبتي إنني هنا أبحث عنك أخاف أن أموت قبل رؤيتك.

يتخيلها تمر أمامه على ضفة النهر في الجهة الأخرى تقف تنظر إليه وتنتظر ذهابه لها، ويقذف نفسه في النهر كالمجنون، يسبح بعنف ناحيتها حتى يدركه الغرق لكنه يستطيع إدراك الضفة الأخرى فيكتشف أن حبيبته غير موجودة ويُمدد جسده المُنهك يرتعش برودة من صقيع غير موجود، ويمر عليه الوقت يفكر فيها كأنها أمامه. يقول وصوته الخافت منبوح:

- أين تكونين؟.....



يستجمع قواه من جديد يقف ويترل النهر تدريجيًا، ويسبح بقوة عائدًا إلى الجهة الأخرى يعود إلى هذا البيت ليجد آن وبعض من أهل قومها ينتظرونه عند بباب البيت، وآن تسأله:

– ماذا حدث لك يا أمير؟

يبتسم زهير على حاله:

– لا شيء مهم..

يبتسم:

– لقد سقطت في النهر.. أهلًا بكِ يا آن وبأهلك الكِرام.

آن تبتسم، ولا ترى أنه على خير تخبره:

– لقد تشاورت مع قومي، وسنعقد اجتماعًا كبيرًا يجمعنا وسيحضر فيه كل أهل الجنوب للبحث عن حبيبتك وإن لم تكن هنا، سنخبرك بما يجب علينا فعله وأرى أنها ستكون من المؤكد في أرض الشمال.

بالفعل بعد فترة من بحثه في أرض المكان، لا يجدها فيعقدون هذا الجمع لمن لهم القرار في أرض كان يصف لهم ملامحها لعلهم يعثرون عليها رأوا فيه ضعفًا وتعلقًا فرأفوا بحاله جميعًا متحدين متفقين بمساعدته وإعطائه سر الأرض وسلامة العبور إلى أي مسلك كان.

يسألونه في فضول شديد لغرابة شخصه يريدون معرفة موطئ قدمه وأصله، فهو غريب ليس كأي إنسان. حتى يروا فيه تكتمًا يحترموه بحكمة الحكماء إنه خائف عليهم لفتنة تفرقهم يقول لهم زهير:

- إنني لا أريد لكم عِلمًا يُفنيكم ومعرفة تفرقكم وتنشر الفتنة بينكم، فما أتيت منه مكان لا عودة ولا رجوع فلا تسألوني فيه إن كنتم لكلماتي تدركون.

يحترم جمعهم كلماته يكتمون ما قاله فهذا سرهم وسر مجلسهم فقد شعروا فيه حقيقةً أن لديه خبرًا وعِلمًا مسمومًا، ولم يتكلموا بعدها في ذلك أبدًا يتفقون وكبيرهم على تجهيزه بكل ما أوتوا من سبل وقوة لطريقه في البحث عنها خارج أرض الجنوب التي لا وجود لحبيبته فيها يقول كبيرهم:

- يا أهل كان ما رأيكم أن نعطيه مفتاح المكان؟ والله إني أرى فيه الأمانة فقد أعاد لنا فتاتنا وهو لا يريد شيئًا سوى ما قدمته لنا شجرة الجبال.

يوافقه الجمع بدون أي تعليق، فالكل مُحب لشخصه إنهم قوم طيبين، لا خبيث بينهم ولا كاذب يسألهم زهير:

- اعذروني. ما مفتاح المكان؟

يتقدم شيخهم وكبيرهم نحو شقٍ ذهبي في جدار من جدران المكان، يُخرج منه تاجُ له قرنان،من الذهب يتوسطه حجرٌ كريم يتلون بكل الألوان، له نور يتغير كنور السحاب المتسلل بين الغيوم هذا التاج من يرتديه على رأسه له حق العبور، وفتح أى مدخل في أرض كان، ولا لأحد قادر على نزعه سِوَاه إنه قانون صارم من قوانين الزمان كشجرة التفرعان يقول كبيرهم:

- هذا هو تاجك يا زهير تستحق ارتداءه، لكن.. إنها أمانة تعيدها إلينا بعد عثورك على حبيبتك سيحميك طوال الطريق حتى النويان يرتعدون خوفًا منه فلا تخاف طريقك.

زهير:

- انتظر! كيف الذهاب؟

الشيخ:

- إنه النفق الذي أتيت منه أنت وآن، ستسلكه وحدك إلى أرض الشمال إنها تنتظرك هناك.

زهير:

- إنها أمانة وشرف كبير لي أن أحظى بثقتكم شكرًا لك أيها الشيخ الحكيم.

تساعده آن في متاعه الذي سيعينه على طريقه، ومعه هذا المخطوط الجلدي ليرشده في طريقه تقول له آن وتُطَمْئنه:

- لا تخف أيها الأمير فهذا هو المكان الوحيد الذي يجب أن تبحث عنها فيه متأكدة أنها هناك مشتاقة إليك، تنتظر ذهابك إليها لكن عِدني أن ترتدي التاج لأنه سيرشدك ويدفع عنك أى شرٍّ موجود.

زهير:

- لا تقلقي يا آن فلن يفارقني أبدًا.

يتحرك زهير ومعه قوم الفتاة آن، يرى السماء تمطر بقطراتها الماسية فوق رؤوسهم والسحب دكناء تتحرك في سماء خضراء لونها أشعة الشمس تسقط بين ثنايا الفراغات، تتحرك إلى الأسفل، إلى أرض كان رطوبة متصاعدة تذكره ببيوت البحر القديمة، تذكره بمنزله القديم وحجرته المظلمة، التي كان دومًا يجلس بها متكئًا على كرسيه الخشبي الذي يلازمه دومًا بعد وفاة حبيبته. يقفون مصطفين حول باب النفق زهير ومعه آن وبعض من أهلها، يودعوه بالسلامات. يؤكد عليه شيخهم:

– لازم تاجك يا زهير، ولا تنزعه أبدًا وبمجرد أن تراك حبيبتك، ستعلم وقتها بكل ما يدور في خلدك، وأنك مُبعثها إليك من الشجرة المقدسة ويجب عليها أن تتقبلك وتتقدم نحوك وقتها. وإن لم يكن فاعلم أنها ليست لك، وليس مقدرًا لكما الاقتراب وإن عاندت ستصرعها شجرة الجبل، وتنفيها عن عينك تمامًا فهي معقودة بميثاق هناك.

يحترم زهير قوانين المكان ويُخبره التمام يعِد آن، بعودة قريبة، بعد أن يجد حبيبته، يقول:

– سأجدها عن قريب وسأعود إليكِ لنشكرك أنتِ وقومكِ يا آن.

آن تحتضنه بقوة تودعه، تقول:

– سأنتظرك أيها الأمير، أتمنى لك السلامة والأمان.

يبدأ زهير داخل أعماق النفق الضيق مرتديًا تاجه ومتاعه على كتفه يتابع الطريق، يتابع طريقه مشتاقًا إلى رؤيتها، يعلم مشقة الطريق بأخطاره،

يتحرك نحو الظلام وتاجه ينير طريقه يرشده للأمام، يستمد منه السكينة ينظر ويتابع تلك الكتابات والنقوش الممددة على جدران نفقه، يتأمل أجزاءه يواسي رحلته ووقته الممدود.

يجد غرابة في نقش محفور على الجدران، يتكرر ويتكرر كأنه مشهدًا لحدث يتحرك مع تتابع الزمان. إنها صورة لرجل يقف عند حافة باب غريب، وتستمر النقوش في رسم حركته التي تبين فتحَهُ للباب، إلى أن يغلقه وراءه للاشيء موجود فقد دخل وذهب بعيدًا خلف بابه الغريب. يترك هذا النقش خلف ظهره ويتابع طريقه. لكن هناك أثرًا في نفس زهير غير حميد، فيشعر أنه المقصود، وأن قصته محفورة على الجدران، وهناك أمر غريب، ليستشعر بخوف من عنكبوته القديم الذي يتذكره، ويشعر بخيوطه أسفل عنقه. يسري داخل يديه ليتلاعب تحت أظفاره يدفعه ألمه لقضم أظفاره حتى يكاد يُدمي يديه ليقع على الأرض، ويقول: توقف.. توقف يا زهير ولتكمل النفق.

يشرب بعض الماء ويداه ترتعشان خوفًا من هذا العنكبوت الذي علا كيانه بداخله، واقترب من امتلاك جسده، يخاف أن يحكم قبضته ويسيطر على عقله، يصرخ بقوة ضاربًا بكأس الماء في جدار النفق يقول:

- لاااااااااااا لن أكون فريسة للجنون، وسأتابع طريقي إلى نهايته، ولن يوقفني أحد مهما يكن.

العنكبوت (7)

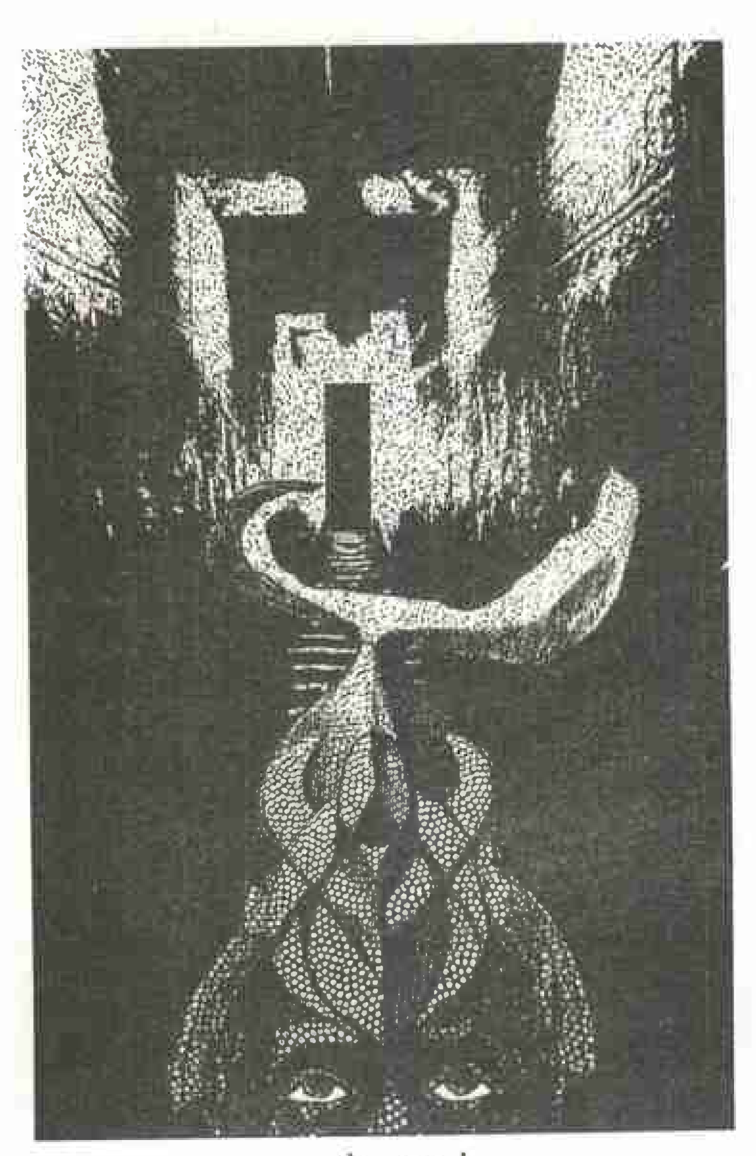
أأحمق أنت؟ تركته يختفي في هذا الرواق سأنتظره وراء هذا الباب سأسحق أمعاءه على الجدران ماذا تقول لقد فات الأوان فلتبكِ أنت وأصرخ جيدًا. تركته يسير على الجدران يقتل من يشاء. غباء. تبًّا لك! كنت تراه ينشر الخيوط وأنت أحمق لا ترى. لقد إنتى أمرك أنه يصنع البيوت يعبث بعقلك وعقل هؤلاء الأغبياء الآن صمت.. الزمن يمر بسرعة جنونية.. ما هذا اللون الأصفر؟ إنني أموت. لا إنه الأبيض. إنني أشعر به، بهذا العنكبوت يبتسم خلف الباب. باب حجرة زرقاء لها أربعة أبواب، ما هذا الركن المظلم؟ إنه يمتلئ بخيوط العنكبوت، يجرى ويستقر فوق هذا الجدار. صراخ ووساوس لبعد خفي موجود داخل هذا الرواق. آآآه.. لا. لن أكون فريسة تؤكل.

خطوات مسرعة وهرولة مُتعبة، حتى يصل إلى فتحة التفرعان "فتحة الجبل" ليتقدم فرحًا إلى تفرع ونفق الشَمال، يُكمل طريقه إلى الأمام، ويعلم إنه اقترب كثيرًا منها. يُحدث نفسه ويقول:

- إلى أين أنت ذاهب يا زهير؟ أإلى طريق لا نهاية له؟ إم إلى حبيبة تشبهها؟ إم إلى أخرى تذوق فيها مرارة الفقدان؟

بالرغم من تفكيره السلبي يتمسك بالفكرة ويستمر مُجتهدًا يتحرك داخل النفق، راضيًا بما سيجده وما هو مكتوب له للقائه يقول لنفسه ويُقنع عقله باستمرار، بأن ذلك الحاضر الغريب لأفضل بكثير من فكرة موتها، من فكرة أنه لن يراها مرة أخرى نور تاجه يُظهر هذا البياض القادم من بعيد، ليجري مسرعًا ناحيته. يُصعق من هذه العناكب البيضاء التي تجرى ناحيته، تصنع الصرخات لكنها خائفة من نور تاجه الشديد، ويستمر عدوهُ في رعب ممدود ليتخطاهم حتى يجد نفس الباب الغريب، ليفتحه، ويغلق خلفه الباب ملتفتًا لما خلفه، ويتذكر هذا النقش القديم.

***



إن ما رآه حينما التفت قبل إغلاقه الباب ليست العناكب البيضاء، بل كانوا الكهنة النوبيان، لقد كادوا يمسكون به لولا تاجه مفتاح العبور.

ما حدث كان فجائيًا ملأ قلبه ونفسه رعبًا شديدًا ليستمر مبتعدًا عن هذا الباب يُكمل طريق النفق بحذر، لكن المكان يختلف تمامًا عما سبق. يرى رسومات تشبه إلى حد كبير حضارته الفرعونية القديمة مرسومة بأسلوب غريب كأنها حضارة موازية لقوم وقصص غير التي نعرفها يقول لنفسه:

كيف أتى وعبر الفراعنة إلى هذه الأراضي البعيدة؟ أكانوا يعلمون سر الممر منذ قديم الزمان؟ أهم من بنوا وصنعوا هذا المكان؟ ما هذا إنه لتشابه كبير سوى اختلاف الأقوام!

يتأمل تلك النقوش التي أكدت له أن حضارته القديمة لها يد في بناء هذا الممر"ممر بيت السيد الخولي" الذي يؤدي إلى تلك الأراضي والأزمان إنهم قد جعلوها مخفية عن العيون في بيت قديم، وتركوها سرًا لمن كان له نصيب العبور إنهم كانوا هنا في يوم من الأيام، ويستمر في الحركة يتأمل تلك النقوش الأفقية والرأسية التي تزداد وتزين ببعض التماثيل البارزة، يتفاجأ بإنتاء النفق بسد صخري عليه تمثال لرجل وامرأة تشبه زوجته يقفان متقاربين ويُمسك أحدهما يد الآخر كأنهما حبيبان سيجن زهير مما يرى يقترب من وجه تمثال الرجل، إنه الزمن قد أكل وجهه وأخفى معالمه، ولكن.. نفسه تخبره إنه هو.

تماثيل وصخور مُتراكمة. ولا وجود لَمنفذ، يُكمل به نفقه. يبحث في كل شقٍّ ورُكن عن طريقة لاستكمال رحلته لكنه الاختناق، يُحيط به. وصقيع شديد يُحاصره يلتفت ويتحرك مذعورًا،يكاد يصرخ: أين الطريق؟ أين الطريق؟ فيسقط أرضًا على وجهه، يذرف دموع الحسرة وفقدان الأمل فيستدرجه ظلام عينيه تدريجيًا مغشيًّا عليه لوقت طويل.

أحد يُناديه:

- استيقظ يا زهير من غفلتك، فأنا في الجانب الآخر لا تفقد الأمل أنا حبيبتك.

زهير يستيقظ على النداء، وشعور طاغٍ يدفعه للبحث عن مخرج. يُمسك صخرة يُحاول طرق إحدى الجدران حتى يجد صدى صوتها يدله على أن هناك شيئًا خلفه يُزيد بقوة من تحطيم الجدار، فينفجر ظلام النفق من ثغرة دقيقة، يَخرج منها نور شديد، يتسلل بقوة، يُخبره أن هذا هو الطريق، وزهير بقوة يدفع صخور هذا المكان ليُزيد حجم هذا الثغر، صانعًا مخرجًا له، فيستطيع الخروج إلى هذه الأرض الغارقة في بياضها من ثلج ممدود.

إنه الأمل الأخير في أرض بعيدة يجلس ليستريح ويُفكر كيف سيجدها في هذا المكان ينظر في البعيد ليجد قلة من الناس تتقدم ناحيته كأنهم في انتظاره يعلمون مسبقًا بمجيئه إلى هنا. يسلمون عليه:

- أهلًا بك يا زهير في أرض الشمال إننا "النورشان"، من أنبتتنا شجرة الجبل ننتظر قدوم طالبينا، وأنت أول الحاضرين نبشرك بأن زوجتك وحبيبتك تنتظرك هنا منذ طقوس الشجرة المقدسة.

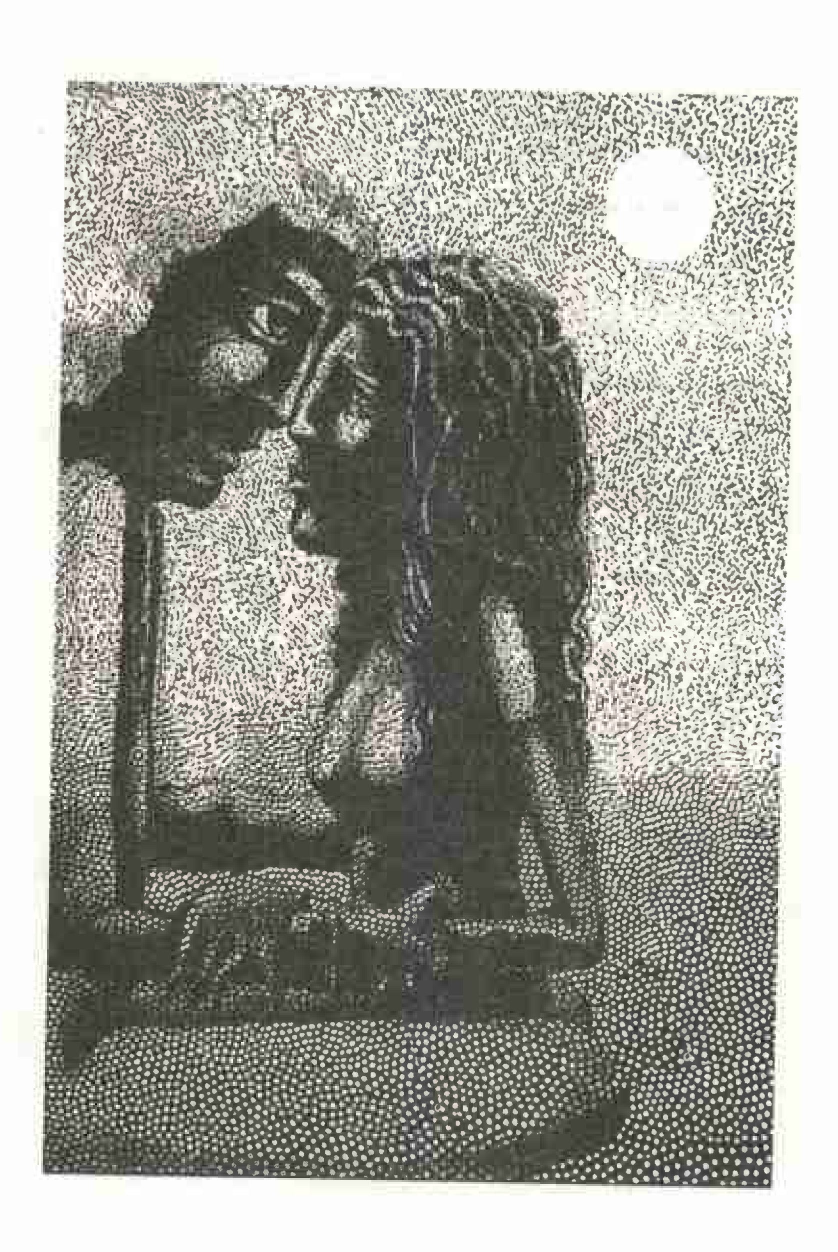
في ظل صدمته يشعر بنسيم رقيق يتحرك بينهم، والناس تفتح الطريق لفتاة سمراء قادمة من بعيد، يرى ابتسامتها التي يعرفها جيدًا تدمع عين زهير كأول مرة دمعت عيناه فيها يبصرها ويتأملها إنها حبيبته هاجر التي ارتمت في أحضانه، وهو صامت يبكي على كتفها كطفل صغير، يحيط يديه حول ذراعيها يخبرها ويسألها:

- أتعلمين من أنا؟

النورشان "هاجر":

- يا من انتظرته طويلًا كيف تسألني؟! أنا حبيبتك هاجر ويطلقون عليَّ هنا النورشان إنه القدر الذي أعطانا فرصة أخرى للسعادة ونكمل ما بدأناه سنبني بيتنا معًا ودعنا ننسَ ما فاتنا.

بعد عدة أعوام يبني كلاهما حبهما القديم ويصنعان ذكريات جديدة في أرضٍ لزمنٍ بعيد، يسيران ويطوفان حول بيتهما الذي أنشآه على أول موطئ له في هذ الزمان، أمام تلك الهضبة الصخرية، بجوار ضفة النهر الجاري.



عودة

خارج البيت، على ضفة النهر أمام فتحة هذا الزمان زهير جالس على كرسيٍ خشبي، يُشبه ما كان في حجرته في بيته القديم لقد صنعه لنفسه التي تَحِن لذكريات الماضي يقضي أوقات فراغه والاستمتاع بالمكان على هذا الكرسي، يشاهد حبيبته سعيدًا بها ينظر إلى عينها من بعيد يخبرها بحبه المجنون لها يقف تاركًا الكرسي ويتحرك بمحاذاة الضفة ذهابًا وإيابًا، يتذكر عالمه وكل ما ما فاته حتى يعود أمام بيته ليجلس ينادى زوجته:

– تعالي يا هاجر اجلسي معي.

لا يسمع صوتها، ويعيد نداءه مرارًا وتكرارًا ليرى أنها لا تسمعه وأن هناك خطبًا ما يترك كرسيه،ويجري نحو البيت خائفًا عليها صمت.. وسكون... يدخل حجرة حجرة مفزوعًا إنها ليست هنا لا وجود لها حتى يجد هذا الكرسي يصرخ من أحضره إلى هنا؟ من أتى بك هنا؟

أصوات لأحذية تتحرك داخل البيت يذهب هنا وهناك أشياء تتبدل، وجدران تتغير إلى شيء يعرفه إنه بيته من زمنه القديم يصرخ لاااااااا. لاااااااااا. أين أنا.. يجرى في البيت كالمجنون يبحث عنها أين أنتِ يا هاجر؟

حتى يدخل حجرته.. يجد نفسه جالسًا على كرسيه مُقيدًا بأغلال حديدية صدئة وأمامه رجل جالس يشعر بالجنون يصرخ أين أنتِ يا هاجر؟ ويهرب خارج البيت إلى شارعه القديم كأن لا شيء قد فاته يُهرول ويسير مُتخبطًا بجوار جدران البيوت، يتحسس ملامح الشارع ويصرخ ينادى في الناس أين أنا؟ أين حبيبتي؟ والناس تنظر إليه كالمجنون.

***

مسقط رأسي

السيدة العجوز من نافذتها تتعرف إلى أحد قادم من هناك تعرفه إنه الفتى الذي قد غاب مروره من هذا الطريق مصعوقة تراه كالمجانين تسأل نفسها: ماذا به؟ إنه يهرول وينادي شيئًا غير موجود، على أحد قد مات، وتركه وحيدًا. تشعر.. بل متأكدة بأن الفتى قد فارقته زوجته تتذكر يوم إعيائها سائرةً معه من هذا الطريق، لقد كان ذلك منذ زمن ليس ببعيد. وكقلب أم في حنيتها وحُزنها الشديد على حاله، تجري وتخرج من بيتها مسرعَة خلفه، تريد أن تلحق به، قبل أن يؤذي نفسه. إنها سيدة عجوز كبيرة، لا تقدر على مجاراته ذاهب إلى شاطئ البحر متجهًا إليه، يريد الموت. وإنهاء هذا الجنون. جنونه...

***

العنكبوت (8)

تبًا لكم! إنني سأقتل نفسي الآن سأرمي بهذا الجسد إلى البحر إلى هذا الشاطئ القديم سأقتل كل شيء معه سأرمي بذكرياتي هنا أنه المكان الذي بدأ منه كل شيء لا لن أتوقف عن الصراخ.

يصرخ زهير:

– أريد الموت.. أريد أن أموت.

تناديه العجوز:

– يا بني انتظر.. انتظرني يا بني.

يتوقف زهير على حافة شاطئ البحر، والأمواج ترتطم بقوة ترج الصخور أسفله تكاد تبتلعه تغرق بمياهها البيضاء كل ما حولها، وزفرات الموت أسفل قدميه تنادى اقفز يا زهير حتى بلغته العجوز،تتنفس الصُّعداء، تتمدم نحوه بخطى بطيئة والدموع تملأ عينيها تنادي:

– يا بني.

يلتفت زهير خلفه، وقد كاد يقذف نفسه في البحر غرقًا، ليرى السيدة عجوز تمد يدها على كتفه، تقول:

– عد لبيتك يا بني فماذا ستكسب بموتك هنا فإن فقدت حبيبًا أو عزيزًا فإنه لن يقبل ولن يرضى بما ستفعله.

زهير:

– أريد الموت يا أمي فقد اكتفيت من هذا العالم.

السيدة العجوز:

– والله يا بني لن يعود شيئًا بموتك،ولا تنسَ أن ما ستفعله سيُغضب من تحب.

تضمه السيدة العجوز ليتركها عائدًا لا يعلم ما الذي أمامه وما ينتظره أوتار عقله على أشدها تكاد تتمزق، يفترسه التفكير، يسأل نفسه:

– أكل هذا طيف من خيالٍ مجنون؟ أفقدتُ عقلي ونسيتُ من أنا؟ أكل ما فات لا شيء؟ كيف ؟! لقد كانت سعادتي معي قريبة في يدي أكنت أسير في طرقات خاطئة؟ أمشي بلا وعي تدفعني غرائزي الحمقاء التي أكلها الفقدان، أتخبط في ظلمات العقل، أنفي نفسي بعيدًا في الظلام، وأنسى حقيقتي، وإنني سأعيش وحيدًا دونها أأنا مجنون الآن؟ لَم ينظر إليّ هؤلاء.. كأنني مسخ غريب.. صراخ.. ابتعدوا عن هنا...

العنكبوت (9)

لا تقفوا بجانبي ابتعدوا عن أذني أريد أن أسمع صياحي، صرخاتي التي تزيدني ارتياحًا أريد فراغًا، مساحة بيضاء، مساحة سوداء لا لن تفهموني. أنا المجنون انظروا سمعوا ضحكات الجنون لفوهات البراكين قد تفهمون أن هذا الثقب الأسود صديق، رفيق يشدني إلى الأعماق، إلى باب له زمن بعيد، وزمن عنيد، وآخر عجيب فأنا هناك ملك سعيد، أو عبد شريد. أتبتسمون مني كمجنون؟ لا لن تروا شيئًا من هذا الجنون من هذا العنكبوت سأتركه يسير بينكم يصنع البيوت، يقتل الذباب حشرات العقول.

في الداخل

إن تفكيره مسموع، ينادى لشخص غير موجود كأنه يحدث شبحًا يطوف حوله ينظر بعيدًا يجد العجوز تراقبه وخلفها البحر الذي يعكس ضوء أشعة الشمس في عينيه تحرقها. خيوط العنكبوت بجسده تتحرك وتقيده، وعلامات الخدش على ذِراعه، تمتد إلى عنقه كأن أحدًا كان يخنقه لوقت بعيد يجري ويهذي كالمجانين حتى يصل إلى باب بيته، ويدخل إلى حجرته، والصمت كان شديد ليجد أنه ما زال مُقيدًا على كرسيه ومعه شخص غريب.

كيانه يتحرك ويختفي منه تدريجيًّا، ليتجسد في شخصه الجالس أمام هذا الرجل، وجسده عند الباب غير موجود يتحدث إليه ويلقي عليه الأسئلة بغرابة كرجل شرطة أو كمحقق. يسمع صوت اللاسلكي يقول للمحقق:

– مش متأكد من اللي أنا شايفه.. لحظة يا فندم.. في دم في كل مكان.. في ريحة غريبة جدًّا. دي جثة.. بكرر جثة في الصالة.. إستنى كمان في جثث كتير مرمية هنا..إحنا محتاجين نكلم معمل المباحث الجنائية بسرعة.. صوت غلق اللاسلكي.

المحقق:

– زهير أنا عاوز أساعدك بس مش هقدر أجاريك في الجنون اللي بتقوله بيت إيه اللي يوديك لمصر القديمة ههههه، ومين المعز ده؟ أنا فعلًا

آسف إنت ارتكبت جريمة قتل هنا، وأحسنلك متدَّعيش الجنون، والأفضل إنك تقولي كل حاجة دلوقتي.

زهير:

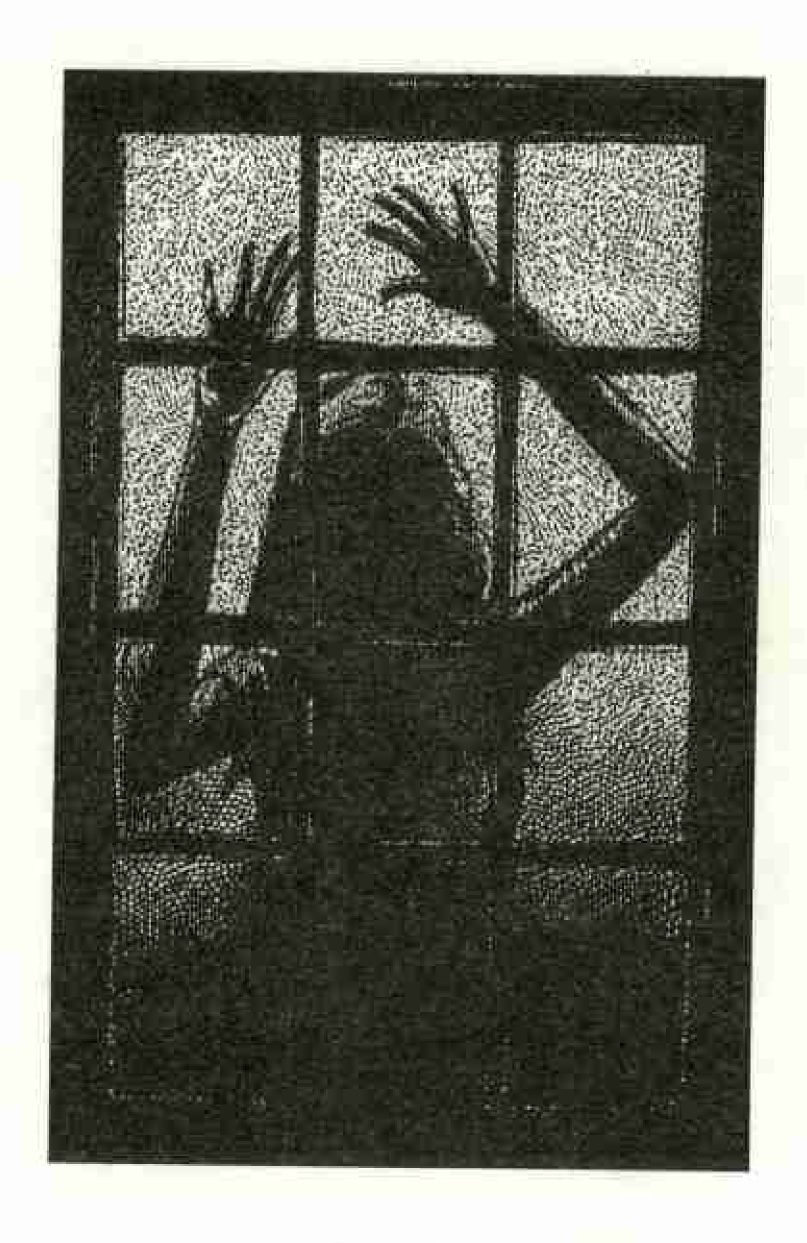
– مش فاهم أنا دخلي إيه باللي بتقوله، وجثث مين دي؟ صدقني دي الحقيقة.

المحقق:

– إنت كده بتخدع نفسك، وإدعاءك للجنون مش هيفيدك.

يصرخ زهير يريد فك قيوده كالمجنون ليحكموا عليه قبضتهم، رجال البوليس يجرونه إلى الخارج في هذيانه يرى حبيبته خلف نافذة البيت تنظر إليه. كأنها تعلم بما يحدث له.

***



جنون أم يقين

في مستشفى مشدد الحراسة يمر عام على زهير بعد تحقيق طويل حول مقتل ثلاثة من أصدقائه في بيته لا يعلم كيف قتلهم أهو بالفعل قد جُن جنونه بعد موهّا وقتلهم في هذيانه دون أن يعلم.. يعيش في سجنه لا يعي إن كان ما عاشه حقيقة أم لا، وممر البيت، وحياته في زمن المُعز، وأرض كان يسأل دائمًا نفسه ويصرخ في جنون أأنا المجنون؟ حتى يعتاد على سجنه وكونه هذا المجنون البغيض الذي قتل أصدقائه دون أدنى شعور.

داخل عالم المجانين، يرى زهير نفسه أنه أعظمهم جنونًا يسير كملك بينهم يجرى خلف جنونه يريد قتل عنكبوت غير موجود..من حياة العقلاء إلى عالم المجانين تخبره ممرضته:

- زهير في زيارة مهمة ليك.

يذهب معها ويسأل نفسه:

- مين ده اللي عاوز يشوفني.

يتجهان إلى صالة الاستقبال، يرى نفس المحقق ينتظره جالسًا ومعه شيء يُخفيه، وعندما رآه وقف مرتبكًا ينظر إليه بغرابة، يقول في أدب، بطريقة تختلف عما كانت:

– اتفضل يا زهير محتاج أكلمك بخصوص حاجة مهمة جدًا.

زهير في جنونه الذي اعتاده ينظر إليه بغرابة، يشك في أنه اكتشف شيئًا ما ليجده يُخرج من تلك اللفافة شيئًا يصعقه، ولكن يكتمها في نفسه إنه الكتاب من زمن المعز مع زيه القديم المحقق يرصد عين زهير، يريد التعرف عن كذبه أو صدقه يقول:

– زهير بعد مدة من التحقيق، لقينا في بيتك الكتاب ده، وكان معاه زي قديم تقدر تتعرف عليهم؟

في هذه اللحظة يعلم زهير أنه ليس بمجنون إنه كتابه ومخطوطاته وزيه في زمن المعز لدين الله. يعلم بأنه لا يهذي، ولكن.. كيف قتل أصدقاءه لا يتذكر هذا الأمر ينظر في عين المُحقق يبتسم له ابتسامة المجنون يكتم معرفته وما قد علمه وتأكد منه الآن يصرخ فيه ليأتِ الأطباء ليأخذوه وهو يضحك ضحكاتٍ هستيرية.

المحقق يمسك هذا الكتاب والزي ليخرج مبتعدًا وشكه يقتله يترك المكان، خارج المستشفى يتلفت وراءه وزهير يقف خلف قضبان النافذة يبتسم له، يتابع ذهاب هذا الأحمق. يُفكر في طريقة للهرب وعودةٍ إلى ما كان.

***

العنكبوت (10)

يخبروني إنني أنا المجنون يخبروني عليك الذهاب للطبيب أقول لااااااا لست أنا المجنون بل أنتم المجانين إنه مجرد عنكبوت أبيض يسير يتسلق الجدران، يعبر هذا الممر أو الرواق.لاااااااا أنتم لستم العقلاء لكنكم لا تريدون السماع لم تعبروا هذا الطريق. تبًّا لكم! إنكم لا ترون ما أراه الآن. أحبكم أغبياء. إنهم ما زالوا هناك خلف الباب ينتظروني أنا الذي أضحك عليكم الآن، ومعي صديقي صانع الخيوط قاتل الحشرات العنكبوت.



